محبوبة محمد سلامة

لكنّ الله يدري

رواية

دار البشير

لَـكِنّ الله يَـدرِي

الطبعة الأولى
1444 هـ / 2023 م

اسم الكتـــاب: لَكِنَّ الله يَدرِي
المـــؤلـــف: محبوبة محمد سلامة
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 128 صفحة
عدد المـــلازم: 8 ملازم
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقــم الإيـــداع: 4249 / 2023
الترقيم الدولي: 5 - 995 - 278 - 977 - 978 :ISBN

التوزيع والنشر:

دار البشير للثقافة والعلوم
القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

© copyrights

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

دار البشير للثقافة والعلوم

محبوبة محمد سلامة

لَكِنَّ الله يَدرِي

روايـــــة

دار البشير
للثقافة والعلوم

إهداء

مسكينٌ، يحسب أن..
الرفقةَ فَخٌ، ويعلَم كيف يُلَملِم أثره!..
يخفي صوته، يكتم عطره، يمشي وحده، يترك ذنبه..
حكايته بين الجماد دعاءٌ..
«يا الله، بارك أجره».

❊ ❊ ❊

لونٌ كالعسلِ..

ليس الأسود الذي يشبه رماد الحرائق، ومذاقه كالسُّكَّر المعقود، بل الأبيض الذي تلمحه عند مطلع إشراقة الصباح، ومذاقه كأوَّل فطورٍ تصنعه الأمهات بالعيد، على الرُغم من أني لا أعلم لمَ يسمَّى عسلًا أبيض، ولونُه في الحقيقة شفافٌ؟!..

ثُمَّ كأنَّما أُوقِدت جمرةٌ.. ولَّما وصلَتْ لأقصى اشتعالها؛ أُلقيتُ فيه، فأضحى اللون كالذهب الخالص، إذن.. لوني كالعسل الذهبي؛ بل على العسلِ الذهبيِّ أن يُقارن أصَالةَ لونهِ بي!.

في بدايةِ اليوم كنتُ أنتظر خُطواتي الصباحية، والتي أعانق فيها أرض الجامعة الأمريكية، في قاعات المحاضرات هناك نفحةٌ ودٍّ عظيمةٌ تنشأ بيني وبين أحجارها، لا أملك

كلّ مـرَّةٍ إلا أن أقـع في حـبِّ كل زاويـةٍ منهـا.. وكأنهـا لَمسـتيَ البِكْـر لها!

ربـما لم أكـن هـذا الصبـاح بأبهـى حـالاتي؛ لكنِّي.. كـما أنا دائمًا..

أروع حذاءٍ قد تراه عين إنسان!.

لـذا كان من الصـادم لي جدًّا أن أتصبَّح بكيسٍ بلاسـتيكي يوضع عـلى وجهي، ثُمَّ أُحـشَر داخل صندوق مظلِم، ويسـتقر بي الحـال في النهايـة أمام مشـفى حكومـي في مكانٍ مـا، وأنا لا أعلـم ما الـذي أتى بي إلى هنـا، أو لماذا؟!

صبـاحٌ مُظلِـم لا يشـبه بأيـة حالٍ مـن الأحوال مـا اعتدتُ عليـه، ولن أفعل أبـدًا!..

عـلى الرصيـف لسـاعاتٍ لا يهتـم بي أحـد، ضـوء الشـمس فـوق رأسي يـؤذي جلـدي، أمـا كان لهـم أن يغلقـوا الصندوق؛ فـلا أتـأذَّى أكثر؟!

امتـدت أخيرًا يدٌ تحـرِّك محتويـات الصندوق المجـاورة لي؛ ثُـمَّ في النهايـة اسـتقرَّت عنـدي، فُتِـح الكيـس وأمسـكني بين يديـه، كانـت الأصابـع خشـنةً، كأنّـما نُسِـجَت خطوطهـا من سكاكين!..

«أيُّ بائسٍ هذا الذي يحملني؟! وأيُّ بؤسٍ معه سألقى؟!».

وضعني على الأرض، أدخل قدمه الأولى؛ فأتى صوته راضيًا عني؛ لكني لا أرضى، قدمه فجَّة، وكأنها كومة فظاظةٍ وحُشِرَت فيَّ، كان لصاحبي قدمٌ أصغر من المعتاد في قياسات الرجال.. لكنه كان نظيفًا جدًا، أمَّا هذا...

أدخل قدمه الثانية، سار خطوةً.. خطوتين.. ثلاثة..

ولم يكد يأتِ بالرابعة حتى أدخل في القدم اليسرى مسمارًا!

مسمارٌ!! وأنا من أنا؟!..

ما الذي أعطى لمثل هذا الحق فيَّ؟!..

أفزعني الحال، فكأنّما شيءٌ في رأسي، أعتقد لو أنّي أعرف الصداع الذي يصيب البشر ويقلقل أفكارهم ويهيِّج أوجاعهم.. لقلتُ هو ذاك، توقعتُ أن ينزع منِّي المسمار، لكنّه وبكل لامبالاةٍ أعادني إلى الصندوق دون أن يهتم بإزالة ما تسبب به!..

حسنًا، اكتفيتُ بساعةٍ واحدةٍ بعيدًا عن مالكي الأصلي، يكفيني اختلاط بمثل هذا، ولا أريد تجربة غيره، أريد العودة....

هُنالِك جاء أحدهم وحُمِل الصندوق إلى داخل المشفى، وأُغلِق عليَّ، فصارت ظُلمات من فوقها ظُلمات!..

***

لم يضعوني على الأرفف بطريقةٍ صحيحة، وجهي كان لداخل الخزانة، فلا أرى أين أنا، فقط أسمع أصواتًا، بجانبي بعض النِّعال..عن اليمين والشمال، أسمع همسهم عنِّي مَن حولي، لن أردَّ عليهم، لا أهتم بما يقولونه فهم دون مستوايَ على أية حالٍ، أحسنهم صناعةً.. لم أكن لأسمح له أن يمسح عني التراب في يومٍ عاصف، الآن يقف بجانبي كأنما الرؤوس تساوت!.

على أرضِ الجامعة كانت الأحذية برَّاقةً، والخطوات خفّاقةً، صنعتها رقراقة، وكنتُ بينهم مَلِكُهم، الأدقّ والأرقّ والأحقّ بكل تميّزٍ واهتمام، فكيف يكون هذا.. هنا.. مُستقرّ سكوني.. مقبرتي؟!..

صوت أنفاسٍ عالٍ يمزّق رتابة العالم من حولي، لا أرتاح له.. لا أرتاح هنا على أية حالٍ، الأنفاس تقترب ومعها طاقتي على التحمُّل والترقُّب، حُمِلتُ من جديد، لا بد لهذا التنقّل من نهاية..

- هذا حذاءٌ رجالي؛ لن يفيدك.

- لكنه ليس كبيرًا كباقي أحذية الرجال، على كل حالٍ هذا ما أحتاج، فقدمي اليمنى منتفخةٌ قليلًا، وهذا الحذاء سيسعها بحرِّية، أمَّا اليسرى فمجروحةٌ وملفوفة بالأربطة؛ يكفيني لها كيسٌ أربُطهُ حولها.

كان الحديث قصيرًا بين شابٍ يبدو من ملابسه أنه يعمل هنا، وبين سيدةٍ كبيرةٍ بالعمر، أظنّها محجوزةً بإحدى الغرف، عجيبٌ حال المرضى بهذا المشفى.. يأتون دون أحذيةٍ في أقدامهم!.. أيُّة حالٍ وصلتُ له، وأيُّ أناسٍ سألقى بعد؟! وبعدما كنتُ من نصيب الرجال، يمشون أسيادًا بين الناس، تنتعلني امرأة، أي هوانٍ وذلٍّ صرتُ إليه؟!..

جلست المرأة على مقعدٍ مزدوج بالزاوية، لا زالت أنفاسها تحارب الهواء لتخترقه، لا أهتم حقيقةً؛ لكن بدأ الصوت يزعجني، كانت الموسيقى الكلاسيكية أفضل أنيسٍ لي بعد يومٍ طويل من المحاضرات، الآن لا فكاك من أصوات الشهيق والزفير هذه! أقبَلَت فتاةٌ ذات حذاءٍ خلّاب، بديعٌ رسمه، أنيقٌ لونه، مشية الأقدام فيه تحسبها

ملَكيـةً لا مـن عامـة الشـعب، اقتربـت حتـى جلسَـت بجانب المـرأة الكبـيرة؛ فالتقـت طرقاتنـا، واجتمعنـا!..

أخرجـت الفتـاة هاتفهـا وتحدَّثت فيـه، كان صوتهـا يصلني بـلا حيـاةٍ، وكأنَّـما تردِّد شـيئًا تحفظـه وقـد كررته كثـيرًا حتى أتى كلامهـا كالآلة:

- وقـف (عَبـدُ الخَبـير) مكانـه لاهثًـا بعـد جـرّهِ كرسـيًّا يسـاوي وزنـه عِنـدًا، ويُكافـئ ثِقله أمـلًا حتى وصـل إلى حافةِ السـور، ظهـر كُلُّ شيءٍ أسـفله حيـث الطريـق والنـاس مِـنْ فوقـهِ.. كصفحةٍ بيضاء يشـوبها بعض البـوح العابث؛ فظهرت الحـروف غـير مرتّبـة والكلـمات راقصـة هاهُنـا وهاهُنـا! أمّـا أعـلاهُ حيـث السّـماء وكُلُّ ما يعشـق فقـد رآه.. حزينًـا مُنهكًا، هكـذا بـدا السَّـحاب.. مغلـوبٌ عـلى أمـره، مهـزومٌ دفاعـه، غائـرٌ جُرحـه؛ ينـزف دون انقطـاعٍ!.

سـكتت الفتـاة أخـيرًا، لا أفهـم مـا تعنيـه كلماتهـا؛ لكن لا يسـتوقفني إلا نـبرة صوتهـا، كلـمات حزينة وصـوت طبيعي لا يسـكنه أيُّ تأثُّـر.. كيـف يجتمعان؟!

دقيقـة وعـاد صوت الفتـاة من جديـد تكمـل حديثها على الهاتف:

- قلتُ لك.. اسمه (عبد الخبير)، وليس (عبد البصير)، المصداقية مهمة هنا..

- .....

- لا، لا أحد يعلم سبب الوفاة غيري، أنا رأيته بنفسي قبل أن يقفز.

- .....

- سأخبرك لكن بشرط؛ أن تكتب الفقرة التي قلتها لك بالضبط، وتقول أنَّ هذه كلمات الشاهدة على الحادث.

- .....

- لأني أريد أن أعرف رأي الناس في تعبيراتي عن الحدث، أريدهم أن يقدّروا قلمي.

- .....

- هذا أمرٌ مهم جدًا، من فضلك لا تضحك!.

- .....

- حسنًا .. حسنًا، لا تغضب، سأخبرك، لأنه كان وحيدًا، لم يرافقه أو يزُره أي إنسانٍ طوال مدة تعبه، وكان مرضه يسوء...

- .....

- اسمع، ينادونني الآن، اكتب كما أخبرتك وإلا لا أخبار حصريةً بعد اليوم!.

أغلقت هاتفها وقامت من مكانها لتبتعد، وقبل أن أرى الحذاء المُدهش ينصرف من جانبي.. امتدت يد المرأةِ العجوز؛ فأمسكت الفتاة من كتفها وهي تحدثها:

- لا تزيدي جراح الناس يا ابنتي بكلماتٍ كا لسكا كين . . .

لكن الفتاة أزاحتها عن كتفها بطريقةٍ درامية.. كأنها تمسح أتربةً علقت بها، ومضت مسرعةً دون اكتراث، وها قد ذهب الحذاء الأنيق الرقيق وصاحبته الفظَّة! أيُّ عبثٍ هذا، حتى مُتعة النظر مقطوعةٌ هنا؟!..

عاد الهدوء إلا من صوت الأنفاس الثقيل، لا بأس ببعض الصمت، ففي ترتيب الأولويات فائدةٌ على كل حال، الهدف الأول، أبتعد عن البشر تمامًا حتى لو قضيتُ بقية أيامي في زاوية صمّاء.

الهدف الثاني، إزالة ذلك المسمار العالق برأسي..

لا.. لأجعل هذا الهدف الأول بسبب أهميته، فأنا أحتاج لإنسانٍ واحدٍ على الأقل كي يمدّ يده إليَّ وينتبه للمسمار؛

فينزعه عني، بعدها أبتعد عن البشر، وهذا سهلٌ، فما لا يعرفونه أننا نستطيع الاختفاء، شيءٌ من الظلام نعكسه على هيئتنا؛ فلا يرانا البشر، لهذا حينما يقول واحد منهم دعاءه: «اللهم ربَّ الضالة اجمع بيني وبين ضالتي».. يفرض على هيئتي قدرة الله وينزع عني التخفّي، لذا.. مضمونٌ أمر الاختباء، لا يتبقى إلا أمر المسمار.

مضت ساعةٌ وكلّما مرَّ عليَّ ملأ من أُناسٍ أكاد أستنطق صمتي وأناديهم.. «انزعوا عني ذلك العجز برأسي!».

لكن تغلب عليَّ مشيئة الله أنني جماد؛ فأخرس، هذه الأركان تستبقيني فيها، ولا يزال المكان يزداد وحشةً، العجوز تتأوّه من فوقي، لمَ لا تعود لسريرها؛ فترتاح؟!..

أقبَل رجلٌ وامرأة يدفعان سريرًا، مرَّا بجانبي؛ فقامت العجوز خلفهما حافيةً تلهَث.. عادت مسرعةً إليَّ؛ ارتدت فردةً وعلّقت الأخرى في عكازها، كانت قدمها أصغر مما أعتاد.. ولأن حظي اليوم أسوأ من لون الأرصفة؛ فلم تصل أصابعها لموضع المسمار، والآن فعلَت العجوز ما هو أسوأ، لقد ضغطت على الجزء الخلفي مني وثنته فجعلتني نعلًا وليس حذاء!..

كلُّ هـذا حتـى لا تُتعـب نفسـها وتدخـل قدمهـا بصـورةٍ أكثـر إنسـانية كأي شـخصٍ يحـترم الحذاء الذي يلبسـه ويسـير بـه ويعتمـد عليـه! تزعجنـي مشـيتها، تسـير بخطـىً متمايلـة متوجّعـة خلـف الرجـل والمـرأة.. ولا زالـت أنفاسـها أعـلى صـوت أسـمعه بهـذا المـكان!..

بعـد خطـواتٍ عـشر.. أدركـتُ أن الأرض تـضيء؛ لا.. ليسـت الأرض، بـل خطـوات العجوز، الأرض تحـت أقدامها تـضيء.. وكأن شمسًـا مختبئـةً في جـوف كعبهـا، كل خطـوةٍ تـشرق، فـإذا مـا ارتفعـت قدمهـا عـن الأرض.. بـدأ الضـوء يخفـت شـيئًا فشـيئًا حتـى إذا مـا اسـتقرَّت قدمها عـلى الأرض مـرةً أخرى؛ أظلمـت الخطوة القديمـة تمامًا وأضـاءت الخطوة الجديـدة جدًا!

شيءٌ مـن الـدفء يمـلأني.. مـا هـذا الـذي يجـري؟!.. دفء؟! بـماذا أهذي؟

يبدو أن المشفى أصابني بمرضٍ ككل من فيه.

- أنتِ بخير.. لا بأس عليكِ، والله ستكونين بخير.

هكـذا تحدّثـت العجـوز للمـرأة النائمـة عـلى السريـر، تمدُّ يدهـا ببعـض المـال للرجـل الواقـف وللمـرأة معـه، يأخذانـه

ويبتعدان...خطواتهما لا ضوء فيها!

تنقّل نظري حولي، هناك رجلٌ في الزاوية البعيدة يقف على رأس سريرٍ، خطواته تضيء، بجانبه فتاةٌ.. مظلمةٌ أقدامها، حركاتٌ سريعة لأشخاصٍ في منتصف الغرفة، البعض يضيء.. الكثير، لا، أتذكّر الجامعة التي مررتُ بها ليل نهار، هل صُنِعَت الأرض هنا من مادةٍ أفخم وأرقى مما صُنِعَت منها الجامعات؟!

كان شقّي الذي عُلّق بالعكّاز يرى وجه المرأة على سريرها، والعجوز عندها، تبكي الثانية على الأولى، وترفع الأولى للثانية رأسها، تسألها بفزعٍ:

- ماذا سيفعل الألم بي يا أمي؟.

كان الصوت لا يليق بالوجه، حروفٌ بنبرةٍ تشبه الأطفال!

سألتها العجوز بقلقٍ:

- أتتألمين يا حَبَّة القلب؟.

- لا، وهل سأتألم كثيرًا؟.

كان واضحًا أنَّ مفعول المسكن خدّر وجعها، أقبل رجلٌ تضيء خطواته، مدَّ يده حيث المرأة الراقدة وأمسك

أصابعهـا برقّةٍ وانحنـى عليها وقبّلهـا، التفتت إليـه وأطالت.. فكأنـما تجمـع فكـرةً في رأسـها ثُـمَّ صاحت بسـعادة:

- (حسن)، ممكن أشرب عصير؟!.

- أُحضرهُ حالًا.

أشـار للعجـوز بيـده وخـرج، فتَبِعَتـه، وقفـا بعيـدًا عـن الغرفـة، كان الحديـث بينهـما مزعجًا جدًا، فما معنـى أن لا أحد يعلـم مـا يحـدث للمـرأة ولا سـبب مرضها؟!

أليـس هـذا مشـفى؟! ومـا فائـدة المنظـار الذي أجـروه لها عـلى معدتهـا إذن إن كانـوا لا يسـتطيعون إجابة أي سـؤالٍ عن مرض المـرأة؟!..

ازداد الحديث إزعاجًا أكثر لمَّا بدأت العجوز تبكي، والرجل..

ما هذا؟ يبكي؟! أيبكي الرجال هنا؟!..

أقـدام العجـوز لا تحملهـا، والدمـع يسَّـاقط منهـا كالمطر، هـل يبالـغ البـشر هنـا كلهـم هكـذا؟!.. تسـتند عـلى كتـف الرجـل عائديـن إلى الغرفـة، تهمـس لـه أو لنفسـها..

«حبيبتي ستنجو.. أليس كذلك؟»..

يسـكت الرجـل، وكأن الدنيـا حولهـا بدورهـا تسـكت، تسـأل عـن النجاة!

نجاتي مثلًا.. أن أخرج من هنا وأعود لبيتي الأول، أمَّا نجاة المرأة ففي بقائها معهم، ونجاة العجوز.. أعتقد.. في رفع مشقة ابنتها عنها، لا أعرف كيف تتعدد أشكال نجاة كلٌّ منَّا ولا زلنا نجتمع على نفس المعنى، كيف يقدّرها الله في عليائه بهذه الدقّة؟!..

ينجو الإنسان بكيفيةٍ تختلف من واحدٍ لآخر، والجماد بأخرى، والحيوانات بطريقة ثالثة، وغيرهم.. وكلّها في النهاية تُسمّى نجاة!..

لعلَّ لهذا عندما يضيق الحال جدًا بالإنسان مهما كان عظيمًا، في النهاية يرفع يده للسماء ويقول.. «يا ربِ، نَجِّني!»..

لا يطلب طريقةً ولا كيفيةً، فهو يعلم يقينًا أنَّ الله سيأتي بها على أفضل وجه، حسنًا، لستُ بشرًا لكن في رأسي مسمارًا وأخطو على أرضٍ لا أرتضيها، وكلُّ ما حولي كئيب.. فيا ربِّ، نجِّني!..

الناس من حولهم كلٌّ في شأنه، بين نائمٍ وقائم، فتاةٌ نائمة أسفل سرير، وتبدو أنها رفيقة أمها التي بأعلاه، لمَ لا تأخذها لتنام جانبها؟!

تتحدث أمها على الهاتف بصوتٍ عال:

- ابنتك نائمة تحت السرير، طبعًا مرتاحة، وما الذي سيتعبها في نومة الأرض؟! وقد كان عليها أن تظل واقفةً أمامي تحسَّبًا لأي طلبٍ أطلبه!.

وشيخٌ كهلٌ يخدِم ويُطعِم فتىً صغيرًا مريضًا، يمسح له، ينظفه ويساعده، ثُمَّ يقف تتخلخل قدمه التي تحمله، فيجلس على طرف السريرِ بجواره؛ فيصرخ الفتى الجالس عليه، فيرتد الشيخ واقفًا، ثُمَّ تمضي دقيقة تئنُّ قدمه فيها أنين الزمن؛ فيجلس على طرف السرير في حذرٍ.. فيعود الفتي إلى صراخه، فيهتف زائرٌ عندهم لرفيقته، وأحسبه أبو الفتى وبجواره زوجته:

-تعاملي مع أبيكِ هذا.. فما لنا ولكبار السن وحماقاتهم؟!.

فترد عليه:

-وهل ستأتي أنت لخدمة ابنك هنا؟! يكفي أنه يأتي كل يوم ليراعيه.

فيتصرَّف الشيخ كأنّه لم يسمعه!

كل هـذا والعجـوز لا تـبرد عينهـا ولا يتوقـف المـاء المالـح منهـا، كانت المـرأة نائمةً على سريرهـا، أما الرجـل.. والذي ظهر الحـال أنّـه زوج المـرأة، جالـسٌ بزاويـةٍ ينظـر إلى يـده صامتًـا، لا يرفـع عينه ولا ينتبـه لأحد، قدمـه اليمنى ترتفع بتوتـر وتنخفض في مكانهـا، فيتحرك كعبـه حركةً خفيفـة؛ فَيَتَأتى مـن تلك الحركة شررًا مضيئًـا لا زلـتُ أجهـل معنـاه، لكن الاحتـمال الأكبر برأيي أن الأرض تـضيء تحـت أقـدام الطيبين.

دخلَت ممرضةٌ تحمل ورقة سلّمتها للزوج وهي تخبره:

- أحضر هذه الأدوية الآن من فضلك.

تقـف جانـب الزوج الـذي لا زالـت أقدامه تُنبـتُ ضوءًا، أمـا هـي فكانـت خطواتهـا لا ضـوء فيهـا حتـى خرجـت مـن الغرفـة تمامًا!

هُنالِـك دخـل ثلاثـة أشـخاصٍ وسـاروا تجـاه مـكان جلوسـهم، علَـت أصواتهـم بمجـرد أن وقفـوا أمـام السريـر:

- نعتذر عن التأخير..
- كنا نفطـ....

وكزه أحدهم في ذراعه فأخرسه، أكملت امرأة منهم:

- المواصلات يا أمي كانت صعبة جدًا...

- فعلًا.. فعلًا..

- والدخول للمشفى صعب كذلك.

نظرت العجوز لهم وسكتت، سأل أحدهم:

- هل أفاقت (سلمى)؟.

أجاب زوجها:

- قليلًا وعادت للنوم.

- ماذا قال الأطباء؟.

- هل ستُشفى؟.

نظر له الزوج بغضبٍ صارخًا:

- من ماذا؟ تُشفى من ماذا؟ وهل يعلم أحد ما بسلمى حتى يحددوا هل ستُشفى أم لا؟!.

أتى سؤال الأول بنبرةٍ عجيبة، يسأل الإنسان أسئلته آملًا بالإجابة، أمَّا هذا فكان يسأل وكل صوته ينتظر أن يخيِّب أحدٌ أمله، كيف هذا؟ لا أفهم هؤلاء البشر!..

هتفت العجوز:

- اهدأ يا (حسن)، ربنا يطمئنا كلنا عليها بإذن الله.

أجابها الزوج:

- لسنا كلّنا ننتظر الطمأنة يا خالة، البعض ينتظر شيئًا آخر!.

ضربَت واحدةً على صدرها بأسلوبٍ تمثيلي وهي تهتف:

- عيبٌ عليك يا زوج أختي.. عيب والله.

هنا، قام الرجل والتفت للعجوز قائلًا:

- سأنزل لأحضر الأدوية المطلوبة يا خالة.

لم ينتظر ردَّ العجوز والتي نظرَت لأبنائها على إثر جملته، وأزعُم أنها كانت تنتظر أن يقوم واحدٌ منهم بمهمة الأدوية هذه؛ لكن ظلَّ الجميع بمكانهم، أما الزوج.. فلم ينتظر على أية حال، خطواته لا زالت تضيء، مع أنه كان غاضبًا، أما خطواتهم فكانت مظلمة.. أشرارٌ؟! لا أعتقد، لا يبدو الشرُّ أصيلًا فيهم، طيبون؟! ربما، لكن أقدامهم لا تضيء، مهما كانت حقيقة شأنهم، أقبل واحدٌ منهم تجاه العجوز، يبدو أكبرهم، مسح على رأس المرأة في سريرها وجلس جانبها والتفّ تجاه أُمّه وقال:

- ليست قسوةً لو تعلمين، نحن فقط لم نستطع فهمها أبدًا، كنتِ وحدكِ الشخص الذي يفهمها ويتواصل معها، صحيح كانت تتحدث حروفًا عاديةً لكن لم تكن مثلنا، جسدها أكبر من عمرها، وعقلها أصغر من شكلها، ونحن....

بـدا أنّـه يحـاول اختيـار كلـمات أفضـل ممـا خـرج منـه بالفعـل، لكـن لم يسـتطع؛ أنقذته أختـه الواقفة بعيـدًا، اقتربت قليـلًا وأكملـت:

- مـا يحـاول أخـي الكبير قولـه.. هو أننـا نفكّر بـكِ أكثر ممـا نفكّـر بــ(سـلمى)، تعبـكِ معهـا طـول سـنوات عمرهـا، صـبرك عليهـا، مشـقّة التعامـل مـع نوبـات غضبهـا وخوفهـا وقلقهـا، كل مـا في الأمـر.. أننـا نتمنـى لـو يـأتي الوقـت الذي ترتاحـين فيه.

لا أعـرفُ شـيئًا عـن المواسـاة، لكـن أهـذه مواسـاة البشر لبعضهـم؟!

«لا تحزن.. غدًا يموت وسترتاح!»..

بـدت العجـوز كأنهـا تتقبـل كلماتهـم، ظلّـت سـاكتة تنقل عيونهـا بينهـم، كنـتُ أظـنُّ في الإنسـان شـيئًا آخـر غـير هـذا، شيءٌ مُعجـز، شيءٌ لطالمـا دفعنـا نحـن الجـمادات أن نتمنـى مكانهـم، نحيا حياتهـم، حسـبتُهم يكافحون ليتقبـل كلٌّ واحدٍ منهـم الآخـر كـما هـو، أن يذكّـروا بعضهـم..

«لا تكنَ غير نفسَك»..

في عـالمٍ يبـذل قُصـارى جهده عليهـم ليلًا ونهـارًا، ليجعل

الواحد منهم أيّ شيء آخر، المهم أن لا يسمح لهم ليكونوا أنفسهم، وهذه أصعب معركةٍ على الإطلاق يُمكن لأيّ إنسان خوضها!..

كنتُ أرى أناسًا يُقابلون بعضهم؛ فيُشعِر الواحد منهم غيره بالسوء تجاه ذاته، يشتكون من غرابتهم وعدم قدرتهم على فهمهم؛ ثم أرى أناسًا غيرهم يقابلون بعضهم؛ فيُشعِرون الواحد منهم أنه دهشة تمشي على الأرض، وأن الغرابة التي تملأ تصرفاتهم هي ألطف ما فيهم، وأنَّ تعاملهم مع العالم ليس ساذجًا ولكن لهم طريقةً خاصة في كل شيء، وهذا ما يميزهم.. في الحقيقة أن الإنسان منهم هو ذاته لم تتغير، لكن يبدو أنَّ العيون التي تنظر إليهم هي التي تتغير وتنظر بما داخلها، كأنَّ الله قدّر من البشرِ بشرًا يرون غيرهم بعيون خُلِقت مما خُلِقَت منه قلوبهم؛ فلا يرون إلا كل جميل، وحتى السيء.. فقد يخترعون له اسمًا، فيقولون ذات وَدَاعة..

«اغفر لجمالك المنهوك بسير الحياة وظُلمها»..

أو.. «مُرّ علينا بشقَّيكَ.. الأبيض والأسود؛ وكلاهما سنعانق»..

المهم أنهم يقبلون بعضهم كما هم، يرضون بهم دون زيادة، هؤلاء خلقٌ من خلق الله..

فسبحان الذي خلقهم.. وأحسن صورهم، أما الآن، أتخبّطُ؛ وهو أمر لا يصحُّ أن أمرّ به، وأنا.. من أنا، حذاءٌ لا أكثر!.

كأنَّ أحدهم لملم الكلمات المهمات برأسه؛ فقال:

- الأمر ليس بالسوء الذي تظنينه، فقط نودُّ لو تعود حياتك لطبيعتها قبلها.. قبل أن تكون هي محور الاهتمام كله، والتعب كله، وكل الجهد لها فقط؛ فهي حتى لما تزوجت.. أخذتكِ معها لتخدميها، فهل هذا عدلٌ منها أو من زوجها؟!.

كانت العجوز تسمع وتسكت، كأنّما نَسيَت أنَّ في فمها لسان! لكنها فجأة قامت من مكانها وجذبت ابنها الأكبر من كتفه، ودفعته بوهنٍ وضعفٍ يليق بحال جسدها، مدت يدها تجذب غيره من إخوته في طريقها حتى جمعتهم كلهم أمامها خارج الغرفة، وقفَت أمامهم تستند على عكازها وتنظر لهم نظرةً تكاد تسيل منها الحمم وقالت:

- صعب عليكم حالي، جهدي، مشقة ما أحمله، ولماذا لم تحملوه معي؟!

الآن تقفون هنا وتقولون.. ليتها تموت فترتاحين!..

قاطعها أحدهم:

- لم نقل هذا، عنيناكِ أنتِ، أن نراكِ بخير ولا تحملين كل هذا الهمِّ بعد اليوم.

- وهل طلبتُ منكم أن تحملوه معي أو تأخذوه عني؟!
ما أنا إلا أمٌ رأت صغيرتها عاجزةً عن الحياة كباقي الناس فأعطيتها حياتي.. حياتي أنا، وليست حياتكم، عمري أنا وليس عمركم، سعادتي... لا، ليست سعادتي التي أعطيتها لها بل كنتُ أسعد بها، سعادتي في مرضها كانت ناقصةً...

قاطعتها واحدة وهي تهتف:

- بل كلنا أعطينا...

والتفتت تنظر لإخوتها ليساندوها بالكلمات لكنهما صمتا فأكملت بنبرةٍ غاضبة:

- جبناء! نعم.. كلنا أعطينا، لستِ وحدكِ، أعطيناها نحن من وقتنا الذي كان لنا عندك، ومن مالنا الذي كان نصيبنا في رزق أبينا، والوسيلة الوحيدة لنعيش حياةً أكرم وأفضل، كل هذا كان يُجمَع وفي بداية الشهر يُنفَق علي

دوائها ومدرِّسيها وكتبها، كان الجميع يخرج ونحن نجلس بالبيت؛ لأنَّ صحة (سلمى) لا تسمح بالخروج، كنَّا نراها بخير لكن تصرين أنت أنها أضعف من أن تحتمل فتحرمينا حقنا في.....

صفعةٌ من يد العجوز أسكتت كلّ هذا الغضب المكظوم، كانت ابنتها كالعاصفة التي بدأت صغيرة فلمَّا وجدت الكون ينصت لها.. أخذَت معها كلُّ شيء، الصفعة التي نزلت أجَمَت فمها؛ فارتدت على إثرها للخلف وعيناها تصرخان بمزيدٍ من الغضب والجرأة، على بُعد خطواتٍ كان الزوج يقف مدهوشًا، التفتت له المرأة بنظرة الغضب التي كانت على وجهها والتي تحولت لخجلٍ، ثم صارت نظرة كرهٍ تكاد تشعل النيران في كل مَن يلمحها، تحركت حينها من مكانها مُنصرفةً تجرّ لسانها خلفها والبقيَّة الباقية من عصفها في صدرها، وتبعها بقيتهم دون كلمة، لا أظن الفتاة تكذب، لكن لماذا آذت أمها الآن؟!

يقول البشر دائمًا.. «لكلِّ مقامٍ مقال».. فهل كان هذا وقت الكلام؟!

لطالما رأيتُ مرور أناسٍ.. يعطي البعض منهم ثمار لسانه لا قلبه، ثمار يده لا عمره، فيمرون بلا معنى، أو عنوان، ثُمَّ لا يبقى منهم شيءٌ....

إلّا مَن أحيا في كلمته نبضة صدقٍ من قلبه، ومَن مرَّر في لمسته دقيقة ودٍّ من عمره، هؤلاء وحدهم يبقون.. للأبد، بل أحسبهم أكثر إنسانيةً من غيرهم.

ظلّت العجوز واقفةً مكانها ثابتة لا تميل أو حتى تتنفس، مرُّوا جميعًا بجانب الزوج وعبروا الممر كلّه في دقائق، وقد اقتربوا من بعضهم في شيءٍ من مواساة صاحبة الصفعة، يُشبهون انسحاب العواصف عن الأرض بعد هيجانها وقد جمعَت معها حبات الرمل والحصى، وما إن اختفى أثرهم عن المكان حتى انهار ثبات العجوز، فعاد صوت أنفاسها يعلو، وقدمها تميل رغمًا عنها.. حاولتُ أن أكون لها عونًا وتمسّكتُ بالأرضِ ما استطعتُ لكن غلبني ضعفها، كادت تقع لولا أنَّ زوج ابنتها كان إليها أسبق؛ فأقامها..

سار بها بضع خطواتٍ حتى وجد كُرسيًا لها وأجلسها عليه، كانت الدموع تسقط منها على رأسي، مياهٌ ساخنة، انتبهتُ لتساؤلٍ لم أفكّر فيه من قبل..

إن كان الدمع ساخنًا هكذا؛ فكيف العين التي أخرجته؟ كيف الروح التي أنتجته؟ وكيف القلب من ورائهم جميعًا؟!

جلس (حسن) بجانبها ساكتًا، قالت له من بين دمعها وشهيقها:

- ليسوا بهذا السوء والله.. هم فقط...

أسكتها بحركةٍ من يده وقال:

- لا حاجة لمثل هذا الكلام يا خالة، أعرفهم وأعرف قلوبهم، سيعودون.. لا تحزني.

وكأنّما كلمة (لا تحزني) فجّرت ينابيع البكاء التي في صدرها كله، فتهدّج صوتها وعلا نحيبها وهي تهتف له:

- لا أريدهم أن يعودوا، كيف أنظر لهم وهم يحسبوني ظلمتهم؟!

يرون أن أختهم حرمتهم مُتعة الحياة والنعيم؟!

يا بني، أخبرني.. ما حيلة الإنسان في مرضه؟!

- لا شيء يا خالة والله.

فمسحَت بطرف كُمِّها دموعها كأنها طفلةً تُمسِك نفسها عن البكاء والاختباء بصدر أي كبيرٍ حانٍ، أكملت:

- وهذا ما قلته لوالدهم الله يرحمه، هنعترض على قدر الله

يـا (سـيد النـاس)؟! ربنـا بيختبرنـا.. أعطانـا ثلاثـة بخـيرٍ وواحـد معطـوب؛ هنرجعـه؟!.

يومها صرخ بيَّ وقال:

- اسـتغفري يا (سـت البنات)، اسـتغفري قبـل ما نتكتب مـن الجاحدين.

ابتسم (حسن)، ووضع يده على يدها وهمس:

- (سـيد الناس) و(سـت البنـات).. جميـل دلال المحبين هذا!.

أخرجتها كلماته من بكائها وقالت بعد صمتٍ قصير:

- كان كلُّ كلامـه جميـل، يومهـا لمـا عرَفنـا أنهـا مريضـة كانـت تمّـت عـشر سـنين، فوضع معـي خطـةً أن يكـون عمله الصباحـي للبيـت والأولاد، سـيبحث عـن عملٍ آخر للمسـاء وسـيكون لهـا وحدهـا، كان كل التعـب عليـه.

- وأنتِ يا خالة.. كنتِ كذلك تتعبين.

- أنـا كنـتُ لهـم كلهـم، النهـار مـع الثلاثـة، والليـل مع (سـلمى)، أمـا هو.. فـكان يجلـس بجانبي، يمسـح على رأسي ويقول:

«يعزّ عليَّ حزنك يا ست البنات!»..

كان يقويني، ولما أقوم من جانبه، أخرج.. أسمع صوته يبكي من وراء الباب، كان حتى حزنه يخفيه عنِّي، وأنا كنت أبكي في كل مكان وطول الوقت.. كتم البُكا عذاب يا ولدي، والدموع اللي تنزل على حبايبك عُمر الأرض ما تبلعها ولا تسمح لها الشمس تنشف، وهو كان شَايِل همّه بقلبه وساكت، كان أكثر واحد فينا تعبان!.

حينها قام (حسن) ومدّ يده إليها، فقامت تستند عليه، وعلى عكازها، دخلا الغرفة حيث كانت (سلمى) لا تزال نائمةً، فأوصل العجوز إليها وخرج، لعلّه ذهب يوصّل الأدوية للممرضة، جلست هي بجانب رأس ابنتها، انكشفَت قدم الأخيرة؛ فقامت تغطيها، انزاح الغطاء فقامت إليه، ثُمَّ انزاح؛ فقامت، وكلُّ مرَّةٍ يشق الألم في قدمها شقًّا أكبر من الذي قبله!..

عادت لتقوم من مكانها لُتطفيء المصباح، تقلَّبت (سلمى) في فراشها وهي تهمس:

«ما هذا البرد؟».

فاتجهَت العجوز للنافذة واستأذنت من باقي المرضى لتغلقها، رجعت لتُدفئها، تُضمَّها إلى صدرها وتلفَّها بالغطاء..

لم تتحدَّث العجوز بكلمة.. لكن قدمها كانت تصرخ من الألم، سخونةٌ شديدة ونبضٌ سريع، والميل في مشيتها زاد كثيرًا حتى لكأنها ستقع، أجدُ في استقرارها على السرير الآن بجانب ابنتها أرحم الأمور بها على الإطلاق.

جاء الطبيب، فاعتدلَت وهي تنوء بضعفٍ وتضم شفتيها في حرصٍ أحسبه حتى لا تتفلَّت منها الآه!..

قامت إلى الطبيب، طلب أوراق (سلمى)؛ فذهبَت تطلبها من الممرضة، كانت قدمها تدكّ الأرض وجعًا، تضرب على رأسي بصوتِ عظامها، من قال أن العظام لا حديث لها وأنها ساكتة فهو كذاب، هذا الجسد يئن، كلُّ عضو فيه يصدر صوتًا من وهن، وأنينًا من رجاء، كأنهم يستجدون عفو العجوز ورحمتها لنفسها.. فتنزل في النهاية رحمتها عليهم؛ لكن مما أرى.. فهذه العجوز لا تستمع لشكوى أحدٍ غير ابنتها، تهبها نفسها كلها، صحتها، صبرها، قوتها، ثباتها!..

ظلّت الخطوات تضيء، حتى وهي تسير مبتعدةً عن غرفتها، لا زال كل ضوء منها يشرق ويغرب على أرض المشفى كمعجزةٍ حيَّةٍ، وددتُ لو استطاع البشر رؤيتها وتفسيرها لي، عادت العجوز بالأوراق، شهيقها ينبيء

باختناق صدرها، ليت أحد الأطباء ينتبه لهذا الصوت الخارج منها.. ليت...

ما هذا؟ منذ متى بدأتُ أنا بالاهتمام والتمنِّي؟! ولأجل من؟! لأجل هذه؟!

وصَلَت لغرفة ابنتها، كانت الخطوات الآن أشبه بالزحف، حتى عكازها ويكأنه يصرخ طلبًا للمساعدة، عادت عيونها تمتلىء عجزًا ساخنًا، الأقدام تمرُّ من جانبها، لا أحد يقف لها، لا أحد ينظر تجاهها؛ كأنَّ المعتاد هنا هو الوجع والانهيار، لا القيام والانتصار!

«تماسكي.. أرجوكِ!»..

كنتُ أصرخ بها لها، لم تسمعني؛ لكن كأنّ قدمها سمعتني، لا زالت تُعينها، حتى السرير، تماسكت العجوز ثُمَّ صرخت من خيبة الأمل، لعلَّ السبب أن بعد كل هذا التعب.. الطبيب لم يعد هناك..

لا، بل لأن (سلمى) لم تكن هناك!.

***

أعرفُ عن الدنيا ذَهاب مُتَعِها..

يومًا ما أحضر صاحبي مُلمِّعًا أنيقًا، وضعه على جلدي، حرّكه برقَّةٍ ولطف، يمسحني به رويدًا رويدًا، وأتشرَّبُ أنا رائحة المُلمِّع وفخامته في حِفظي وتزييني، ينمو أثره وعنايته عليَّ مرةً بعد مرة، كلُّ يوم كان هذا هو روتين الحفاظ عليَّ من العبث والهلاك، ودام تَمَتُّعي بتلك الفخامة من حياةٍ فترةً حتى نفد المُستحضَر تمامًا؛ فبُدِّلَ بواحدٍ لا يكافئه في الجودة من قريبٍ أو بعيد، وعددتها إهانةً شديدة على كل قطعة منِّي، حينها أدركتُ أني فقدتُ أجمل مُتعةٍ قد تمرُّ على حذاء.. وكانت تلك أتعَس أيامي عند صاحبي..

وأعتقد أن شعور العجوز الآن هو ذات الشعور الذي جربتُه؛ لكنّي لم أفقد ثباتي كما تفعل هي.. ملقاةً على الأرضِ مدهوشةً صامتة، وصل زوج (سلمى) فأقبل عليها ملهوفًا ورفعها عن الأرض حتى السرير، هنا تكلّمت وسألته:

- أين سلمى؟!.

- سأذهب لأعلَم، لن نفقدها، لا تقلقي.. لا تقلقي، خرجتُ فقط لأحضر لك نَعلًا طبيًا لقدمك.

وضع أمامها نَعلًا كبيرًا وغادر مسرعًا، أمّا العجوز فظلّ وجهها جامد الملامح، لا يتغيَّر، كنتُ أتتبّع صوت أنفاسها..

حتى هذه لم تعد تُسمَع، لولا أن صدرها يعلو ويهبط لقلتُ أنها ماتت!

كانت الأقدام بباقي الغرفة ساكتةً ساكنةً، وجوههم كلهم على العجوز، أعينهم تراقبها وأنا أُراقبهم، عينها زائغة حتى تحسبها ليست في عالمنا...

وكالرعد في فجأته نطَقت العجوز بصوتٍ جامد:

- ضاعت منّي مرةً من قبل.

تحرّكت أقدامهم تجاهها، كانت خطواتهم في البداية مظلمة، يُقبلون واحدًا وراء آخر، ثُمَّ كلَّما اقتربوا من العجوز أضاءت الأرض من تحت أرجلهم!

زادت حيرتي الآن.. بل عظُمَت!

- كنا عند طبيب العيون ننتظر دورنا....

العجوز تُكمِل حكيها بنفس الحسِّ الجامد الخالي من الحياة، لا شفقة في عينها، ولا رجفةَ في صوتها ولا ألم في صدرها، كأنّها آلة!

- كانت على قدمي.. جسمها صغير، أستطيع حملها اليوم كله دون مللٍ، تجلس داخل قلبي والله، احتضنتها.. كتفها دافيء، وصوتها وهي تدندن: «أنا أنا أنا.. أبريق

الشـاي».. زاد النعـاس في عينـي، وكنـت لم أنَـم مـن أيـام؛ فسـقطتُ فيه مـن غير أن أشـعر، انتبهتُ بعدهـا لرجلٍ يضرب عـلى كتفـي والرؤية في عيني شـبه مظلمـة، يسـألني عن دوري في الكشـف، نظـرتُ حـولي.. في كل مـكان، لم أجدهـا!.. صرخـتُ وأنـا أجـري.. أبحـث في الحـمام، عـلى السـلَّم، فوق سـطح العيـادة، داخـل كل دولاب وتحـت كل كـرسي...

مـددتُ يـدي إلى عبـاءتي أفتحهـا مـن أعلاهـا .. أنظـر داخلهـا لعلهـا فيَّ، لعلهـا عنـدي، لعلَّهـا عـادت إلى قلبـي..

أُنادي.. «سلمى.. ردي، أنت هنا؟!»..

كانـت يدهـا مضمومـةً عـلى ملابسـها أمـام الجميـع، وعيناهـا متسـعةٌ لآخرهـا وصوتهـا يـصرخ وينـادي، تحسـبها تعيـش الفـزع مـن جديـد، عالقـة في المـاضي!

مدت سيدة بجانبها يدها إليها، تهزّها من كتفها...

- يومهـا قالـوا لي: «الأمومة لهـا أهلها.. وأنت لسـتِ من أهلها»..عوتبـتُ مـن كل إنسـان، حتـى الشـجر والحجـر كان يـصرخ فيَّ: «يـا مهملـة!». وأنا.. أنا حيـاتي كلها لهـا، لكن لم يرَ أحـدٌ إلا ضياعهـا، حتى قلبـي كان ضائعٌ معهـا.. ممكن تبحثوا معايـا عن (سـلمى)، هـي كفيفة يـا حبّـة عيني!..

قالتها وانفجرت بالبكاء، الآن كلُّ ما كان مكتومًا.. تحرَّر، امرأةٌ قريبة منها غلبتها العبرات فتراها تحاول التماسك، في النهاية أخذت النَعل الذي تركه زوج سلمى وجلست على الأرض تضعه بقدم العجوز وتخلعني عنها...

الفزع والقلق المرسوم على وجه الجميع حيَّرني! هل يُشفق الإنسانُ على إنسانٍ لا يعرفه؟!

انتبهتُ حينها أن كلَّ خطوةٍ على الأرض منهم تضيء، الآن الآن أحسبني فهمتُ سرَّ الضوء، حتى الأقدام تفضح حقيقة البشر وسرَّ حضورهم، فمن كانت خطواته لغيره في زيارة.. أضاءت من تحته، ومن كانت خطواته لنفسه؛ أظلمَت!..

على باب الغرفة وقف (حسن)، يلملم أنفاسه ويستند على الحائط وينادي..

-يا خالة...

حينها نادت السيدة التي على الأرض لأحد الصبيان وسلّمتني له وقالت:

- خذ هذا الحذاء واذهب به بسرعة للممرضة، وأخبرها أن تعطيه لأي محتاج.

ماذا؟!!! ما هذا؟! أين يذهبون بي؟!

انتظر يا ولد، انتظر، أنا هنا معهم، أنا مع (سلمى).. ماذا عن سلمى؟!!

كان الولد يجري بي إلى الخارج، و(حسن) يُسرِع إلى العجوز بالداخل، وأصرخ أنا بينهما، لعله يخبرني قبل أن أذهب.. «أين سلمى؟!»

لكنه انطلق بي على أية حال!..

***

لم أجرّب الغضب أبدًا لكن أحسب أنَّه الآن ما أمرُّ به!

أذكرُ في الجامعة يومًا حضر صاحبي درسًا لم يعجبه، كان درسًا شاذًا عن كل ما مرَّ به من دروس، تكلّم المُحاضر فيه وقال..

«الرضا كما تعلّمنا من زمن.. هو سكوت القلب تحت مجاري الأحكام»..

الآن وفي هذه الساعة.. جرَت عليَّ الأحكام كالبشر تمامًا، ومطلوب منّي الرضا، أرضى بالجهل! ربما لم أكن أهتم في البداية لأعلم ما يحدث، لكن الآن أريد معرفة ما يدور، أين ذهبت الفتاة العمياء؟

هل ستُحرَم منها أمها؟ لن تتحمل العجوز.. لن تفعل!

وهل انتهى الأمر هكذا؟!

جمادٌ لا يملك رفاهية التتبع والحرية والسؤال، لا اعتراض على قضاء الله فيَّ، في الواقع لم أكن لأنزعج من قبل، لكن يبدو الآن أن شيئًا نزل بي، أصابني بضعفٍ، ولا زال يفعل.. كهذا المسمار العالق برأسي دون مهرَب..

على عتبة غرفةٍ مجاورة أسقطني الصبي في الأرض وفرَّ مسرعًا،

ما ضرَّهم إذن لو كانوا تركوني هناك حيث كنت بجانب العجوز ولا زيادة؟!

كانت السقطة تزيد المسمار غرسًا في رأسي، الأقدام هنا مختلفةٌ عن هناك، هنا مجلسٌ غريب، امرأة تقف في زاويةٍ تتحدّث عن الله والخلق، والناس تسمع ويبدو أنها تقرأ شيئًا من هاتفها على أسماعهم...

«عرفتُ منذ أعوامٍ صديقةً لي كانت من أكثر الناس حرصًا على مالها، لا أظنني رأيتُها يومًا تنفق جنيهًا على رفاهيةٍ قد تعود عليها بمتعة مثلًا أو سعادة مؤقتة، كانت دائمة التفكير.. هذا المال حصلتُ عليه من سهرٍ طويل..

وهـذا المـال جنيتـه مـن تعـبٍ ثقيـل؛ وهكـذا... تبخـل عـلى نفسـها فقـط وليـس عـلى أحـدٍ، لا تحـب المغامـرة أو التجـارة وتكـره الخسـارة، فكنـتُ أقـول لهـا كلّـما جاءتنـي الفرصـة..

«من سيكرم الإنسان بعد نفسه؟!

إن كنـتِ لا تريـن في نفسـكِ حقًـا عليـكِ؛ فهـل سـيرى الناس لـكِ حقًا؟!»

وعـلى الرُغـمِ مـن هـذا.. كانـت حقًـا مسـتورةً مـن الدنيا وغدراتهـا، لم أرهـا يومًا إلا سـعيدةً بـما لديها، راضيـةً، لا توفر جهـدًا ولا وقتًـا عـلى أحـد، بقيـتُ في حـيرة منهـا حتـى أتـى يوم..

انتبهـتُ أنها كانـت تقرض النـاس دائمًا المـال، كل من أراد قرضًـا حسـنًا ذهـب إليها، وتَصـبِر بالعـام والعامين عـلى مالها حتـى يعـود، بـلا زيـادة، بـلا فائـدة، حتـى أتـى اليـوم الـذي قالـت لي فيـه ذات بوحٍ..

«هذه تجارتي مع الله، وحدها التي لن أخسر فيها»

توقفـتُ كثـيرًا عنـد كلماتهـا، فكـرتُ.. الإحسـانُ وجـهٌ مـن وجـوه العمـل الصالـح، وجـزاء الإحسـان يأتي عـلى الوجـه الذي يقـدّره الله ويرضـاه، لكنـه لا يجـب أن يـأتي بحسـابات عقولنـا

وأفكارنا.. حينما نتفكّر في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «صنائع المعروف؛ تقي مصارع السوء».

يهتف العقل.. ما علاقة صنيعة معروف مع إنسان.. بالموت؟!

لكن الحقيقة أنَّ كل صنيعة معروف.. سترٌ من الإنسان لأخيه، فيسترنا الله في النهاية، وكنتُ أعلم من زمن قصة الفتاة التي ظلّت وحدها تبكي في موقف الحافلات وهي ترتجف، حتى وقف أمامها حارس المحطة وعلِم ضياع مالها؛ ففعل معها ما يمليه عليه دينه وإنسانيته، ثم يعود الرجل لبيته بعد يومٍ أو اثنين وقد دبَّر المال الذي سيدفعه للمدرسين؛ ليبدأ أولاده دروسهم، فيسمع من أطفاله أن هذا نجح في امتحان الرياضيات، وهذا فهم أخيرًا درس النحو الذي كان يكره اللغة العربية كلها بسببه، ويخبرونه أنه لا حاجة للدروس، فيقول في نفسه..

«يا رب، ماذا فعلتُ لأستحق منك هذا الجَبر؟!»

وقد نسيَ وقفته أمام الفتاة الباكية من قبل، لكن الله لا ينسى!

في قوله تعالى.. (هل جزاءُ الإِحسانِ إِلَّا الإِحسَان)

ثقةٌ ويقين أن لا شيء يضيع، ولا ضرورة أن يردَّ الله علينا إحساننا في نفس الموضع، فالستر نرجوه في كل موضع.

وأذكر جيدًا طفلًا في العاشرة كنتُ أحفِّظه بالمسجد، وكان جميلًا رقيقًا، لا يحبُّ الخوض فيما لا يخصه، في يومٍ طلبتُ منه أن يحكي لي شهادته في مشكلةٍ حدثت بين رفقائه في الحلقة؛ فأقسم لي أنه كان ساكتًا بجانبهم، يشغِّل عقله في التفكير بمطبخ أمه وماذا ستصنع على الغداء، حتى لا يسمع حديث أحد لا يصح له سماعه، يومها تعلّمتُ منه درسًا جميلًا جدًا في الأخلاق..

مضت الأيام وفي طريقي للمسجد وقف أمامي رجلٌ يبيع خيطًا ومعه الإبرة، لم أكن أحتاج الخيط لكن مع ذلك وقفتُ واشتريتُ وصعدت للمسجد، بدأنا الحلقة وأتي الأطفال وكان فيهم الطفل الرقيق، وقف عندي وهو يتلفّت حوله وقال في أذني بخجلٍ ودموعه تسبقه:

-تمزّق بنطالي من الخلف وأنا أصعد على السلم، سينكشف كل شيء.. كيف سأتصرّف؟!.

فتحت حقيبتي بسرعةٍ لأتأكد أنَّ الخيط الذي اشتريتُ معي؛ نظرتُ له بصدمةٍ ودموعي تنساب في صمت.. لم أنتبه لنفسي إلا وأنا أعانقه وأقول له:

-مستورٌ أنت يا فتى والله.. مستور!.

ذهبتُ به إلى الحمَّام، خلع بنطاله وأعطاه لي، وانتظرني حتى خيطتُه له وأعدته.

هذا الطفل كان يستر أصحابه ولا ينظر لعيوبهم حتى لا تقع في نفسه؛ فكيف عامله الله؟!

ستره كما سترهم، وجزاه بإحسانه إحسانًا.. في مجتمعاتنا مثلٌ قديم يقول..

«اعمل الخيرَ وارمِه في البحر»..

كدلالة على أن الخير نفعله ولا ننتظر الجزاء عليه، لكن الحق علينا أن نقول..

«اعمل الخيرَ وازرعه بالأرض»..

فيخرج ثمرًا مختلفًا ألوانه فيه نفعٌ للناس، الحديث عن الإحسان طويل كالطول بين السماء والأرض، والقصص التي نستشهد بها كثيرة كعدد البشر أجمعين، والموضع والمكان هنا يضيق علينا الحديث.. لكن أؤمن أنَّ المعنى قد نزل في النفوس ووجد موضعًا يعبد فيه الله.

انتهت المرأة من حديثها؛ فكأنَّما كانت النساء نيامًا وانتبهن، شيءٌ ما كان فوق رؤوسهن، يحيط بهن من كل جانب، ينزل عليهن جميعًا، أعينهن وأُذنهن، شفاههن

وأعناقهـن، أكتافهـن وأيديهـن..

ينزل عليهن ويأخذ معه ظلامًا كان مختبئًا فيهن!

يظـل يتحـرك للأسـفلِ حتـى يصـل إلى الأرض فتبتلـع ما خـرج منهن!

تتبعـتُ هـذا الأثـر ربما يصـل إليَّ مثلهـن؛ ولعلّـه يأخذ ما يؤذينـي.. فيُخلّصنـي من المسـمار، أو يكـون في طيَّاتـهِ سرٌ آخر لا أعرفـه.. وينفعنـي، لكـن الأثـر اختفـى مـع ذهـاب النسـاء مـن الغرفـة الواحدة تلـو الأخرى، حتـى انفضَّ الجمـع كله.. والـذي لم تكـن أيُّـة خطـوةٍ من خطـوات النسـاء فيـه مضيئةً.. كل الأقـدام مظلمات!.

شـابةٌ منهن، والتـي كانت تقرأ لهـن من هاتفهـا منذ قليل، وقفـت مكانها تبحـث عن شيء، نـادت بعد دقيقة:

- يا بنات، رأيتنَّ حذائي؟

لم يجبهـا أحـدٌ، فتلفّتـت يمينًـا وشـمالًا، ثُمَّ وضعَـت قدمها فيَّ وانتعلتنـي، لقدمهـا ملمسٌ ناعـم لم أعتـده مـن قبـل، أكثر نعومـةً مـن قدم صاحبـي، والعجـوز كذلـك، في جريـان الدم داخـل عروقها رقّةٌ أشـعر بهـا، خطواتهـا أقل حـدّةً، وحركتها بهـا ليونة...

سبحان الذي خلق البشر من طينٍ واحد وجعل في صنعتهم عجيب الاختلاف!

تحمَّلتُ وجودها لحين شعورها بالمسمار ونزعه، كانت أصابعها أطول قليلًا من العجوز، سارت بي خطوةً؛ فتألَّمت، رفعتني قرب وجهها وهي تنظر لموضع المسمار، وبدلًا من أن تنزع مني ذلك الطفيلي العالق بي.. أعادتني إلى الأرض ثانيةً وضغطت بقدمها من فوقي بقوةٍ فجعلَته يشقّ طريقه بي أكثر، ثُمَّ انتعلتني من جديد وسارت بي في الاتجاه المغاير تمامًا لغرفة العجوز!.

***

كلُّ الفتيات تسير باتجاهٍ مختلف، دقائق واجتمعنَ من جديد بعد تغيير ملابسهن، كنّ بزيّهن الأزرق المُوحد؛ فأدركتُ حينها أنهنَّ ممرضات، مدَت الفتاة التي تنتعلني يدها حيث جيبها؛ فأخرجت سماعةً طبية ولفَّتها حول عنقها وأمسكَت جهاز قياس الضغط وتحرّكت..

غرفةٌ جديدة وأشخاصٌ جدد، وتأوّهاتٌ من كل جانب!..

الحياة هنا شاقّة، والآلام غير مألوفة، وكلّهم مرضى بوجعٍ يسلبهم العافية، لا أدري كيف يعمل الأطباء دون تأثر.. أليس في صدورهم قلب؟! كيف يستمرون؟!..

يتسلل شيءٌ ما إليَّ هنا كلّما طال مكوثي، يصيبني بضعفٍ على ضعف، لا وصف له إلا أنني قد أكونُ مريضًا كالبشر!

لا أريد الهرب، لكن أتمنى السلام، أن أُترَك في صمت، هذه البيئة لا تصلح لي.. لا تصلح لمثلي، لا أعرفها ولن أعتاد.....

ماذا الآن؟ ما هذا؟!!!

وكأنّ حريقًا صُبَّ فوق رأسي، ورائحةٌ سيئة تنفد إليَّ وتملأ المكان من حولي؛ فتزيدني فيه كُرهًا على كُرهٍ، وها هو رجلٌ مُسنٌ أحمق.. أفرغ كل ما بمعدتهِ على رأسي!!!

حقًا.. صار هذا المكان لا يطاق!

- آسف.. آسف.. والله آسف!.

كان رجلًا هرمًا كبير السن يهتف بها، لا أدري لمن، لكنه ظلّ يقولها دون توقف، أعادته الممرضة لمكانه وخلعتني من قدمها بهدوء؛ فجذبني من يدها شابٌ بسرعة قد أتى من أحد زوايا الغرفة وهو يستأذنها في تنظيفي، حاولت

الممرضة أن ترفض لكنه كان مصرًّا، وخرج مسرعًا يحملني معه إلى الحمام ربما.. كان هو ما توقعتُ، وبكل غباء العالم.. وضعني أسفل الماء! أحمق!..

ما يزيد عن الخمس دقائق ظلّ يغسل فيَّ حتى أفسدني، ومع ذلك لم ينتبه للمسمار!!..

عاد بي للغرفة؛ لكن الممرضة لم تكن فيها، فوضعني على الأرض جانب السرير وجلس على طرفهِ، كان الرجل الأول لا زال يهمس:

«آسف!».

وهو يجمع يده إلى صدرهِ ويغمض عينه، ويضم قدمه كذلك قُرب بطنه، كان مشهده عجيبًا وحزينًا في آنٍ!

اقترب الشاب منه وأخذه إلى صدره وهو يحدثه:

- حصل خير.. حصل خير، انظر.. الحذاء عاد نظيفًا، مضى الأمر.

لا زال الرجل مختبئًا داخل نفسه، فضمّه الشاب أكثر وكأّنما يجمعه جمعًا، يشدّ عليه بيده ويهمس له في أذنه همساتٍ لا أسمعها، يُبعِد رأسه عنه وينظر له ويسأل..

-ها!

فلـمَّا لا يجـد ردًّا؛ يعـود لأذن الرجـل فيهمـس فيهـا مـن جديـد ويطيـل الكلام، يرفع رأسـه عنـه وينظر لوجهـه ويعود لسؤاله..

- «ها.. هيا.

ينتظـر دقيقـة والرجـل لا زال مكـوَّرًا فيه، فيرتـد ثانيةً إلى أذنـه ويوشـوش لـه وشوشـةً ضاحكة هـذه المرة..

تبـدأ الابتسـامة تشـق طريقهـا لشـفتي الرجـل.. وقدمـه تنفـرد قليـلًا قليـلًا، ويـده تنبسـط بهـدوءٍ وخـوف، وآخـر مـا يفعلـه أن يفتح عينه وابتسـامته على وجهه تتسـع، قال الشـاب بحماس:

- وكـما وعدتُـك.. أشـهى كعكـة برتقـال توصـل لـك الآن!.

صفّق الرجل بيده كالأطفال من سعادته، وقال:

- لا.. انتظـر حتـى يـأتي ابنـي وأحضرهـا وقتهـا ليـأكل معـي.

- من عيني.

- أنـت ولدٌ مـؤدَب، أين والدك لأشـكره عـلى تربيتك يا بني؟.

أجابه الشاب سريعًا:

- أخذه الأطباء للكشف عليه وإجراء بعض الفحوصات وسيعود في المساء.

- على خير يا ولدي.. على خير.

سكتا، طال الوقت، مدّ الرجل المُسنُّ يده إلى بطنه يمررها عليها ويسأل:

- هل وزعوا الإفطار؟

عجيبٌ أمره، يسأل عن الطعام وقد تقيَّأ منذ قليل!!

كان الشاب يبتسم للرجل وهو يهبُّ إلى حقيبته ويخرج منها فطيرةً، ثُمَّ يقفز إلى السرير ويعقد رجليه أمامه، يمسك الفطيرة وينحني قليلًا للأمام مُحدثًا الرجل بصوتٍ غير عال:

- هذه الفطيرة كانت لأبي وهو لا يريدها، وأنا لم أفطر، نأكلها معًا.. ما رأيك؟

ازداد الرجل انحناءً على الشاب هو الآخر وهمس له:

- وماذا لو رجع والدك وسأل عنها؟.

- لن يفعل، صدقني، فهو لا يحب الفطير.

اقتنع الرجل بكلام الشاب، مدّ يده واقتطع من الفطيرة قطعةً، وبدأ يأكلها بنهم، كان واضحًا أنه جائع، والشاب يمازحه في حكايةٍ مثيرةٍ عن شكل والده لما عرف أنه أحضر له فطيرة بدلًا من شطيرة سجق، وكاد يقتله من غيظه،

انتهيا مـن الطعـام فقـال الرجل بـودٍّ ويـده تتنقل بين ملابسـه يبحث عـن شيء:

- تشرب شاي يا ولدي؟

قالها ثُـمَّ بـدت عـلى وجهـه نظـرة إحـراج تبعهـا صمت، حينهـا ضرب الشـاب عـلى جبهته وقـال معتذرًا وهـو يمدّ يده داخـل جيبـه ويخـرج مالًا:

- آسـف يا حاج، نسـيتُ مالـك معي لما ذهبتُ لأشـتري لك الـدواء الـذي طلبـوه بالأمس!.

نقـل الرجـل نظـره بـين الشـاب والمال، فقـال الثـاني ويده تشـير لحقيبـة دواء أعـلى السرير:

- ها هو الدواء خلفك.

التفـت الرجـل خلفـه، ولما اطمـأنَّ للحقيبة مـن ورائه، مدَّ يـده إلى الشـاب وأخـذ المـال ووضعه بجيبـه، فتنحنح الشـاب بخجـل وقال:

- الآن ممكـن تعزمنـي معـك عـلى الشـاي لأني لا أملـك أي مـال، كلـه مـع والـدي.

ضحـك الرجـل عـلى مظهـر الشـاب وهـو يطلـب فـزاده كيدًا:

- أنت فقير إذن في غياب والدك!.

- بل مُعدَم يا حاج والله.

قالها الشاب مؤكدًا وصوت ضحكهما يطوف بالمكان.

من الأسفلِ يبدو كلُّ شيءٍ مبهمًا، لا أستطيع رؤية الوجوه والملامح؛ لكن يمكنني أن أرى الأقدام وحدها، وفيها يظهر الإقدامُ والإحجام، فهذا يقبل وذاك يُدبر، وبينهما من يبقى ممسكًا لا يُفلِت، أمّا الضوء الآن الذي يتجدد في كل ضربةِ قدمٍ تنزل على الأرضِ فهذا معنى آخر من معاني السير، رُبما هذا هو «الاهتمام» الذي يتحدثون عنه!..

العجوز وزوج ابنتها كانا مهتمين بـ (سلمى) فأضاءت الأرض من تحتهم، أخوتها لم يكرهوها لكن ليس فيهم مُهتمٌ بها، حسنًا.. إن كان هذا هو الحال؛ فكان من الطبيعي أن تضيء أقدام الممرضة والطبيب، إذن ليس الاهتمام، لعلها الفائدة والنفع؟! لا لا .. ليس هذا، ربما الودّ والحب، ربما الصدق، أو أن يكون الشخص من العائلة، ربما.. ولعل الإجابة كلُّ ذلك؟!

- سريره جاهز؟ افسحوا الطريق من فضلكم لنمُرَّ.

سريرٌ يعبُرُ وأقدام حوله كثيرة، الضوء هذه المرة كان

مبهـرًا، مدهشًـا، الخطـوات لم تعـد تـضيء.. بـل الأرض كلها مـن كثـرة الرجـال عليهـا، كلّهم.. وكأنَّهـم يضيئون عـلى قلبِ رجلٍ واحـد، وحضورٍ واحـد، ويا للعجب! لا خطـوة مُظلمة واحـدة في كل مَـن أتى!..

كان الرجـل الراقـد عـلى سريـره لم يفـق بعـد، والرجـال من حولـه يُقبلـون عليـه، واحـدٌ يغطيـه، وآخر يعـدل قدمـه، وآخر يتأكـد أن المحلـول مُوصَّل بصورةٍ جيـدة إلى عروقه، وآخر يعطي مـالًا للممرضة الحـاضرة، وآخرهـم يهتف: «سـأذهب لأحدِّث الطبيـب وأتأكَّـد أنهـم أزالـوا منـه المرارة عـلى خـير».. وآخرهم يضـع يده عـلى جسـد الراقـد النائم ويقـول بصوتٍ مسـموع:

«أسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يشفيك».

هـدوء يغلـب الغرفـة وسـكينة، حتـى أنَّ أغلـب المـرضى نامـوا، قـام الشـاب المـرح بعدمـا غطـى الرجـل المُسـنّ بغطاءٍ وجـده في حقيبتـه، وجلـس بزاويةٍ قريبـة صامتًـا، كان الرجالُ المُضيئـةَ أقدامهـم ملتفين حول سريـر صاحبهم، أخـرج واحدٌ منهـم كيسًـا فيه بعـض الحلـوى ووزع عليهم، تتقلّـب عيناه في أرجـاء الغرفة؛ فلمّا اسـتقرَّ نظره على الشـاب في أحد الأركان.. ذهـب إليـه، قـدَّم له كيـس الحلـوى عارضًـا عليه أن يختـار منه

مـا يريـد، ردَّ الشـاب دعوتـه بـأدبٍ، فاقـترب الرجـل منـه ثُمَّ جلـس بجانبه، لم يحـاول إقناعه مـرة ثانية بتجربـة الحلوى، بدأ بـالأكل منهـا وهو يسـلّم على الشـاب ويبتسـم:

- أنا (إسماعيل)، وأنت؟

مدّ الشاب يده وأجاب:

- وأنا (إسماعيل)!.

- تمزح؟!

ضحك الشاب وأكّد:

- والله اسـمي، والـدي الـذي اختـاره عـلى اسـم والده، بالإضافـة لأنـه يحـب نبـي الله (إسـماعيل)، ويتمنَّـى أن أكـون بـارًّا بـه مثله.

ابتسـم (إسـماعيل) الكبير، ومـدّ يده حينها إلى (إسـماعيل) الشـاب بكيس الحلوى وهو يسـأله:

- وما اسم والدك؟.

بأريحيَّة تامة.. أخذ الشاب قطعة حلوى وهو يجيبه:

- (إبراهيم)!.

عـلا صـوت ضحكهـما في الغرفـة، دقيقة حتى عـاد الكبير بينهما يسـأل:

- أنت مرافق هنا؟
- نعم.
- مع مَن؟
- أبي.
- قلقٌ عليه؟
- بل خائف جدًا!.
- لا بأس عليك، خف كما تشاء، ليس عيبًا.

التفت له الشاب وعلى وجهه حيرةٌ عظيمة، فابتسم الكبير وقال:

- المهم ألا تسمح للخوف أن يحبسك، أتعلم.. كنتُ شخصًا جبانًا جدًا، خائف من كل شيء، وبارعٌ أنا يا (إسماعيل) في التمثيل.. فلم يكتشف أحد الأمر، ماهر في إظهار عكس ما أُبطِن، ولطالما أفزعني التفكير أنَّ شخصًا واحدًا قد يقترب مني بما يكفي ليكتشف حقيقتي، وأني لستُ كما أدَّعي من جرأةٍ وجسارة وشجاعة، مرتعبٌ طوال الوقت..

في يومٍ ركبتُ مواصلة، وكان السائق قد شغَّل إذاعة القرآن الكريم، لم أكن منتبهًا لما يخرج من سماعة السيارة

حتى فاجأتني تلك الآية وهي تضرب سمعي وتصفع لا مبالاتي، كأنّها تقول لي.. «أنصت يا أحمق!».. كان الشيخ يقرأ على لسان «موسى» عليه السلام لما قال لقومه.. (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ). فحدثتُ نفسي حينها..

«هل كان (موسى) يبالغ في ثباته أمام قومه ويتظاهر بالشجاعة مثلي؟! أم أنه صادقٌ مع الله؟!».

كان الشاب يُنصِت إلى (إسماعيل) الكبير باهتمامٍ شديد، فأكمل:

- لما فكرتُ في هذه الآية من سنواتٍ تعجبتُ من صدق (موسى) مع الله؛ كنتُ أقول في نفسي.. «هذا إيمان الأنبياء ويقينهم.. فأين أنا منهم؟!».. ظللتُ هكذا أُعلّم نفسي وأذكِّرها في كل موضع تدهشني فيه أفعالهم ويزداد يقيني أنَّ للأنبياء حقًا قلوبًا غير قلوبنا، أفئدة لا تتأثر بما يتأثر به عامة الناس، وفيهم ما ليس في غيرهم..

حتى انتبهتُ يومًا لقوله تعالى.. (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ). فكأني أقرؤها للمرة الأولى، ورد المولى عليه.. (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ).

ارتجف (إسماعيل) الشاب وهو يردد:

- هو ذاك يا رجل، هو والله.. الخوف.

وضع الكبير يده على قدم الشاب، ربت عليها برفق وابتسم بتفهمٍ وحنان:

- ذلك الشعور الإنساني الذي يتملكنا جميعًا كان داخل صدر (موسى) عليه السلام وهو النبي.. لكن الله الذي يعلم السر وأخفى قال له (لَا تَخَفْ).

علِم (موسى) أنَّ خوفه على قومه من الفتنة.. والذي هو مجرد شعور قلبي مخفي لا يكاد يُرى، لم ينطق به ولم يصرّح؛ عرفه الله.. فصار هذا الخوف بمعيّة الله؛ فاطمأنَّ.

لذلك لما قال لقومه والعدو من خلفه والبحر من أمامه.. (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ). حقَّ له أن يقول (مَعي ربِّي)؛ فهو الذي عرف سره دون أن يبوح به من قبل.. وطمأنه، ألن ينصره أمام عدوه وهو الذي خرج بنفسه وقومه هربًا بدين الله؟!

إذن.. لم تكن مُبالغةً من (موسى) عليه السلام حينما آمن بقلبه وعقله وقال (معي ربي)، أتعلم يا (إسماعيل) ما الأجمل من هذا؟.

- أخبرني

- أنَّ معيّة الله ومحبته ولطفه ورحمته ليست لـ (موسى) خاصة؛ بل لعباد الله أجمعين، ولعلّ أقرب مثال يحضرني الآن لما عاتب الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حينما جاءه (عبدالله بن أم مكتوم) الرجل الأعمى، فصرف نبينا وجهه عنه لانشغاله بدعوة كبار قريش؛ فنزل القرآن..

(عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3)).

وكأنَّ الله يخبرنا، إن كان (عبد الله) لا يرى؛ فإن ربه يرى، فأيُّ فضل وكرم هذا!.. والآن يا (إسماعيل) ما الذي ستخافه ومعك الله؟!.

فأجابه الشاب بصوتٍ متهدّج باكٍ:

- أن تنفد مني الحيل والأفكار؛ فأعجز عن الإقناع!.

كانت إجابته عجيبة بما يكفي لتدهشني وتدهش (إسماعيل) الكبير كذلك، الكلمات بدأت بالخروج من فمِّه وأظنه سيسأله ما يعني بالحيل والأفكار، ويعجز عن إقناع مَن..

دخلَت حينها الممرضة التي قابلتهم في بداية اليوم، التفتت إلى (إسماعيل) وسألته:

- أين الحذاء؟.

فقام إليها مسرعًا ليعطيني لها، وقبل أن يحملني.. استيقظ الرجل المُسنّ، وطلب دخول الحمام، ومن الواضح أنه لا يستطيع الذهاب وحده، فعرض عليه الشاب أن يذهب معه ليساعده لكنه رفض، وأصرَّ أن ينتظر مجيء ابنه ليدخل معه، حاولت الممرضة إقناعه و(إسماعيل) الكبير ينصحه بالذهاب، وأن الشاب اللطيف لن يزعجه، والشاب نفسه يبتسم له ويمازحه أنّه لن ينظر إليه وسينتظره على الباب فقط، كلّ هذا والرجل يرفض ويقول بخجلٍ وهو يشيح بنظره عنهم:

- سامحوني، أستحي أن أذهب إلى الحمام مع أي شخصٍ غريب والله!.

بدأ المريض الذي كانت له صحبة وضَّاءة بالإفاقة، فذهبَت إليه الممرضة و(إسماعيل) الكبير معها أيضًا ليطمئن على صاحبه، أما الشاب فلا زال يقف أمام الرجل المسنِّ يحاول إقناعه بالسماح له بالذهاب معه، يقول له:

- أنا لستُ غريبًا يا حاج والله، ألم نأكل معًا صباحًا؟ نحن أهل إذن.. أليس كذلك؟.

لكـن الرجل المسـن ظلَّ عـلى إصراره بالرفض وهو يشـيح عنه بنظـره ويخبره:

- لا، لا أعرفك، سأنتظر ابني!.

قالهـا وجلس عـلى السريـر رافضًـا التحرُّك، وعاد الشـاب قافـلًا إلى الزاويـة التـي كان يجلـس فيهـا منـذ قليـل، وحيـدًا شـاردًا، وكنـتُ سـمعتُ مـن قبـل في الجامعـة أنَّ العيـون عند شرودهـا تـرى الفـراغ لكن الحقيقـة أنهـا تنظـر بداخلها حيث الألم الـذي لا يجـوز نـزع السـتر عنـه وإلا سـيلتهم مـا تبقى في الشـخص من ثبـات!.. بداخلي شـفقةٌ كبيرة على هذا الشـاب، لا أدري مصدرهـا؟!.

الرجـال المضيئـة أقدامهم يلتفـون حول صاحبهـم يعينونه عـلى الجلـوس، والممرضـة بجانبـه تقيـس ضغطـه، دقيقة حتى أتـى صـوت قطـرات مـاء تتنـزل بجانبـي وتندفـع باتجاهـي! أسرع الشـاب وكأنـه يقفـز عـلى الأرض مـن مكانـه حيـث الرجـل المُسـن ينظـر إليـه بعينـين حمراويـن، والدمـوع تجـري منهـما، كـذا المـاء يجري مـن ملابسـه وهو يشـهق بفزع وأسـى في أذن الشـاب:

- آسف.. والله آسف، لم أستطع إمساك نفسي.

ظل الشاب واقفًا أمامه، ضمّ رأس الرجل المُسنِّ إلى صدره وهو يهمس له:

- لا بأس.. لا بأس، أكملها، لا تمنعها أكثر من ذلك، أكملها، وسأنظفك بعدها تمامًا كأنه لم يحدث أي شيء.

وكالطفل الصغير سأله بأملٍ:

- حقًا؟!

- حقًا يا حاج والله.. اطمئن.

تشبّث بذراعه وهو يسأله من جديد:

- وابني لمَّا يأتي لن يكتشف الأمر؟!

- أبدًا أبدًا، لن أترك أي أثر، سآخذك للحمام، وأحممك، وأضع لك عطرًا، ونغيّر ملاءة السرير...

قاطعه الرجل بقلق:

- لا أعتقد أن معي ملاءة أخرى في الحقيبة!.

فقال (إسماعيل) الشاب مُطمئنًا:

- ما رأيك.. أنا معي واحدة زيادة.. لن يحتاجها والدي، سأفرشها لك.

- سلمت يا ولدي، لا أدري لماذا تأخر عليَّ ابني، كأنه لم يعد يريد رؤيتي؟!.

- لا تقل هذا يا حاج، كلنا هنا أبناؤك حتى يأتي ولدك.

كانت الدموع لا زالت تنزل من عين الرجل، لكن الغريب هي دموع الشاب التي بللت وجهه، تأثره عليه شديد، وحسرته عليه تُثير تعجبي!..

لفّ الشاب ملاءة السرير على جسد الرجل المُسن، وقام وهو يسنده بيدٍ وفي الأخرى يحمل حقيبة ملابسه.. وخرجا معًا إلى الحمام.

ظلَّت الأرض تنير من ورائهما مدةً من الزمن، لطيفٌ هذا الشاب، لو كان لي أن أتخذ صديقًا؛ لكان هو، ففيه أهم ما يميّز الرفقاء.. «يستُر عيبَ صاحبِهِ، ويَستُر أنَّه سَتَرهُ!».

الآن.. أما لأحدٍ أن ينظف هذه الأرض؟ فالماء يكاد يصل عندي ويضيف لجملة مصائبي مصيبةً جديدة!.. حينها أقبَلَت ممرضة ترتدي نظارة خضراء كبيرة تغطي نصف وجهها من خارج الغرفة ونادت بأعلى صوتها:

- حالة المرارة، الحاج (إبراهيم إسماعيل) يجهز للعمليات، الحاج (إبراهيم إسماعيل) يجهز للعمليات...

ولَّما لم تجد ردًا تلفتت بعينها تنظر إلى الأَسرَّة، وقفت عندي بجانب السرير ونادت على الممرضة التي كانت لا

تـزال تضـع محلـولًا لأحـد المـرضى، وأخبرتهـا وهي تشـير إلى فِـراشِ الرجل المُسِـن:

- ابحثـي عـن الرجـل الـذي كان عـلى هـذا السريـر وجهزيـه للعمليـات، واطلبـي مـن ابنه (إسـماعيل) الـذي معه أن ينـزل للتبرُّع بالـدم الآن وإلا لـن أُدخِل والـده العمليات!.

سألتها الممرضة الأخرى بتعجب:

- الذي كان معه هو ابنه؟!

فأجابتها ذات النظارة بغير اهتمامٍ وكأنه أمرٌ عادي:

- نعم، والرجل المسن مصاب بالزهايمر.

قالـت جملتهـا ومضـت، ووقفـت الممرضـة الأولى مـن خلفهـا في مكانهـا دقيقـة وكأنهـا تسـتوعب مـا سـمعت، ولا زلـتُ أنـا مدهوشًـا، ابنـه؟!

أسأل بكلِّ تعجب الدنيا.. أين أنا حقيقةً؟! وما هذا المكان؟!

مـا الـذي دفـع هـذا الشـاب لـكل مـا يفعـل؟ مـا الـذي يضطـره لهـذا؟!

لا أفهـم كيـف يتحمـل أن ينظـر في عينـي والـده ولا يرى نفسـه، ولا يسـمع اسـمه، ولا يُسـمَح له أن يُعانقه أو يحدثه إلا كغريـبٍ لا يعرفه؟!

كيف يصبر «إسماعيل» على هذا؟ كيف؟!

ليتهم ينادونه ليعود، أريد أن أراه، أفهمه، أسمعه، أريد أن أعرف.....

لا.. لا... ليس ثانية، اتركيني أرجوك، ألم تجد الممرضة شيئًا تفعله هذه المرة إلا أن تأخذني معها؟! أرجوكِ أريد العودة إلى (إسماعيل)، أريد أن أعرف لماذا يفعل ما يفعله! دعيني عنده رجاءً!!!.

* * *

«من لم يحسّ بالألم؛ لم يُحسِن إلى المَتألمين!».

هل هذا ما ما يعنيه الأمر؟!

أني أُحسُّ، أتألم لأجله، لكنّي واثق أنَّ الألم يخصّني، ألمي أنا وليس ألمهم، ومجرد أنه أصابني بالتبعية، هذه الشفقة النابعة داخلي والنابتة في جوانبي وأركاني.. تصيبني بالربكة!.. وإن كنتُ حقًا أشعر بهم؛ فإلى متى يظل الجماد يتوجَّع من موقفٍ أو مشهدٍ أو حديث؟!

سؤال ساذج جدًا، فالجماد لا يتوجع بدايةً ليكون لآلامه موعد انتهاء، حسنًا، ماالذي يحدث فيَّ؟! ضعفٌ يملأني، وألم،

حتى الهواء الآن يعبر من فوقي فيخلخل ثباتي، هل أرجو منهم أن يعيدوني؟ لمن؟

(سلمى) أم (إسماعيل)؟

هل أنقسم شقين وأذهب بطريقين وأتبع شخصين؟!

يا رب السموات والأرض.. ما الذي أصابني فأنهكني هكذا؟!

ما هي إلا ساعات قُضيَت، لكن ما ظلَّ منها في صدري يخنقني ويذهب بي كل مَذهَب! انتهى المطاف بالممرضة وبي أخيرًا بغرفةٍ بيضاء، في منتصفها طاولةٌ قد وُزِعَت عليها أدويةٌ كثيرة، تركتني على الأرض وجلسَت على كرسي وقد أرجعَت ظهرها إلى الخلفِ في هدوءٍ، وعلى وجهها ابتسامة وكأنها ليست التي حطمت آمالي الآن وبعثرت صرخاتي في الطرقات دون التفات!

مضَت ساعة من عمر الزمان، ولا شيء من عمر المكان وعمري، أحاول صرف فكري عن كل ما سبق، لكن هناك معنى داخلي ينحت في جوانبي نحتًا، وسؤال يقتطع فيَّ اقتطاعًا.. «ماذا لو كان الشعور أمرًا مُكتَسَبًا؟! وأن كلَّ ما تشربته منذ بداية صنعتي حتى مجيئي هنا كان شكلًا واحدًا

مـن أشـكال التعمّـق في الحيـاة؟!».. لعـل آيـة مـا بينـي وبـين الشـعور أن أفهمه!

أن أُفـسّره تفسـيرًا يخـرج بـه من هيئـة التصور غـير المفهوم لهيئة الحضـور المعلـوم.. لعل!..

وربـما كنـتُ مـن البدايـة أشـعر لكـن محدوديـة الشـعور قيدتنـي بـين الفخـر بنفـسي والاكتفـاء بهـا وكـره المـكان هنـا، ثلاثـة مشـاعر فقـط!

هـذا مـا اسـتطعتُ الخـروج به مـن حياتي السـابقة، تعسًـا تعسًـا لخبراتي!..

يبقـى سـؤالٌ واحـد.. مـن أيـن أسـتقي الشـعور؟ مـن المـكان، الأشـخاص.. كل الأشـخاص؟! لا أعتقـد، ما الصلة التـي تدفـع هـذه المشـاعر إليَّ وتسـكنها فيَّ؟

هـذا إن كنتُ حقًا أشـعر.. وإلا فتفسـير كل هذا أني جُننتُ والسلام!..

هُنالِـك فُتِـح البـاب وعبرت منـه فتيـات أثـرن الكثير من الضجـة والهـرج، يبـدو على ملامحهـن التعب، جلَسَـت واحدة ترتـدي معطفًـا أزرقَ وتنهَّدَت بقـوةٍ وهتفَت:

- لن تتخيّلوا ماذا حدث اليوم؟!

التفت إليها الجميع، واعتدل البقية وبدا على وجهها الفخر والاعتداد بالنفس وهي تتكئ بدلالٍ وتبتزهم بقولها:

-كم ستدفعون؟

نفخ البعض بضيقٍ، وأشاح البقيَّة بأيديهم؛ فتجلَّت على ملامح ذات المعطف أمارات الخجل، اعتدلَت وحكَت دون تقدمة:

- وقفت سيارة مرسيدس اليوم أمام باب المشفى الرئيسي، ونزل منها رجلٌ طويل يرتدي معطفًا طويلًا ونظارة شمس، دخل من الباب دون تذكرة، ولما أوقفه رجال الأمن.. رأيتُه يخرج بطاقةً من محفظته أظهرها لهم وعبر حتى وصل لغرفة المدير ودخلها دون استئذان وأغلق الباب خلفه.

سكتت، تلتقط أنفاسها، يحثها الجميع على التكملة وريّ ظمأ فضولهم، فنظرت لهم بشماتةٍ مستفزة، وأكملت على أية حال:

- مضت ربع ساعة ثُمَّ سمعنا كلنا صوت صراخ قادم من الغرفة، دقيقة وفُتحَ بعدها الباب وخرج منه الرجل وهو يهتف:

«سأعلمك حقًا من أنا، والحذاء سآخذه.. شئت أم أبيت، ولو أردتُ أن آخذ عمرك نفسه.. سأخذه».

فتسللتُ إلى باب غرفة المدير.. لأفهم ما الذي يحصل، حينها سمعته يتحدّث على الهاتف ويحكي لشخصٍ ما أن الرجل جاء يطالب بصندوق وضعه أحدهم اليوم أمام المشفى، لا يريد أي شيء من محتوياته إلا حذاءً كان فيه من باب الخطأ، ولَمَّا أخبره المدير أنه لا يستطيع تتبع ما حصل للصندوق لأن أغلب ظنّه أن الأهالي خارج المشفى قد استولوا عليه بالفعل؛ غضب حينها الرجل وثار وماج وهدده وغادر!..

أستمع لهم وأشعر بقلبي يرقص.. هذا لو كان لي قلب لكان يرقص بالتأكيد!

أحسُّ بالسعادة والأمل على أية حال، أيُّ مكان بالنسبة لي أفضل من هنا، المكوث هنا مُتعِب ويُضعِفني، يجعلني دائم الفزع، ولا يستقر فيَّ الشعور.. دائمًا على قلقٍ، أريد أن أعود لعالمي.. حيث لا أحمل همَّ شيءٍ غير أي نوع من ملمعات الأحذية سيضع صاحبي عليَّ اليوم!..

قاطعت فتاة منهم أفكاري وهي تُعلِّق:

- هـذا هـو أقـصى مـا عنـدك في الإثـارة، رجـلٌ يبحـث عـن حـذاء؟!

مـا اسـتفادتنا نحـن بما حصـل للمديـر أو ما سـيحصل أو حتـى مصير حـذاء؟!.

كان كلامهـا قاسـيًا عـليَّ لكـن باقـي الفتيـات استحسـنَّ تعليقهـا، قالـت واحـدةٌ للفتـاة التـي انتعلتنـي مـن قبـل:

- دعكِ منهم، اقرئي لنا شيئًا يُنسينا ما نراه.

فأخرجت الممرضة هاتفها وهي تتنقل بين ألبوم صوره وقالت:

- كنتُ أحفَظ صورة هنا لمقالٍ أعجبني، اسمعوا..

بـين الجامعـة وبيتـي خمـس محطـات مـترو، أنهيـتُ اليـوم المحـاضرات وركبتُـه، الجـو هـادئٌ للحـدِّ الـذي جعلنـي أنتبه إلى محطـةٍ في منتصـف الطريـق، كانـت فارغـة تقريبًـا، هنـاك مقاعـد كثـيرة وعـدد قليـل ينتظـر، لمّـا فُتِـح البـاب؛ وجدتُنـي أقـف وأخرج مـن باب العربة، أسـير بضع خطـوات لمجموعة كـراسٍ في الزاويـة، أجلـسُ وأضع كُتبـي بجانبـي، كانت آخر محـاضرة لا تـزال تـضيء بـرأسي..

زوجـة (سـعد بـن الربيـع) يمـوت زوجهـا؛ فيسـتولي عم بناتهـا عـلى المـيراث، وكانـوا عنـد العـرب لا يورِّثون النسـاء،

ولا يورثـون الأبناء إلا من كان فارسًـا قويًا يسـاهم في الحروب والقتـال، ولم تكـن آيـات المـيراث قد نزلـت بعد.

فتَلُف زوج (سـعد) خمارها عليها وتأخـذ بنتيها وتذهب.. فتسـتأذن.. وتدخـل عـلى رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم.. وتجلـس عنـده.. فتضـع بناتها أمامـه وتقول:

«مـات سـعد وأخـذ عمهـم المـال، والفتيـات لا تُنكَح إلا بمال....»

فيرتجف قلبي من مقولة..

«ذهبـت.. خرجت.. دخلـت.. وقفت.. بين يدي رسـول الله»!..

أتذكّـر وصـف الدكتور لكلـمات زوجة (سـعد)، وصوتها وهـي تخجـل من حديثها بـين يدي نبينـا.. فيتذبذب..ثُـمَّ تنزل آيـات المـيراث؛ فيُرسِـل نبينـا إلى عـم بناتهـا ويأمـره أن يعطـي ابنتـي سـعد الثلثـين، وأمهـا الثمـن، وما بقـي فهو له.

الآن تقـوم زوجـة (سـعد) مـن مجلسـها.. وأبقى أنـا هناك مكانهـا، أبكـي وأبكـي، أسـأله.. وأنا يـا رسـول الله؟! عربات المـترو تمـرّ وأنـا لا زلـتُ بمـكاني، أمسـح الدمـع مـن عينـي؛ فيتفجّـر غيره!

أراني هناك.. حيث هو، سيدي.. وأنا، يسمعني، لم يجب سؤالي، لكن لو أنني عنده.. لدعا لي، كما دعا لعثمان بن أبي العاص وهو يحكي له أن القرآن يتفلّت من صدره؛ فيضع الرسول يده على قلبه ويدعو له، فلا ينسى عثمان القرآن بعدها أبدًا، أو كما أتت له فاطمة تحكي حالها؛ فيقول: «يا فاطمة.. ألا أعلمك كلمات....» وغيرهم وغيرهم، يا الله! بينهم رسول الله، كلّما ضاقت بهم الدنيا؛ ذهبوا إليه، فأيّ فضلٍ نالوه.. وحُرِمناه!..

مضت ربع ساعة منذ بداية جلوسي، فقمتُ لأركب عربة المترو الذاهبة إلى بيتي، وأنا أتمنّى من كل قلبي، لو أني أذهب إلى رسول الله.

كانت الفتيات متأثراتٍ من حولها، تنظر كلُّ واحدة منهن أمامها، عيونهن تسيح في الفراغ، كأنهن يذكرن داخل نفوسهن آلامهن ويحصرنها في ذكرياتهن، ثُمَّ يحاصرنها حتى لا تتفلَّت منهن، لعلّهن يتمنين حقًا لو كنَّ بزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصبُّبن عنده همهن!

وأجدُ في نفسي أن هذا التمنّي من الحماقة بمكان، فماذا لو كنَّ على زمانه لكن كان قدرهن أن كن من المشركين مثلًا؟!

أو من حظهن أن كان لهم آباء سوء فمنعوهن من الإيمان بالله ورسوله؟!

كأنّهن لم يتعلّمن من قبل أن الأمنيات الكبيرة قد تقتل أحيانًا!

عادت حينها الممرضة لتُكمِل ما تقرؤه عليهنَّ:

- وفي طريقي مررتُ على بيتٍ أعرفه من زمن، أحببتُ سكّانه، ونسجتُ في حوائط دارهم خيالاتٍ مدهشة، وحكايات مؤنسة، ثُمّ أتى اليوم الذي غاب الودُّ عن عيونهم وأيديهم.. وفي النهاية قلوبهم!

أسرعتُ الخطى وأنا أمشي في شارعهم، كأنّما لا أريد لعيني أن تنتبه للمكان؛ فأتألم قليلًا.. أو كثيرًا، لكن.. تغلبني الأرض والأركان والريح فأنظر، مرّت حينها بجانبي سيارةٌ وقد علا صوت قارئ القرآن فيها..

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ). فأذكر الله سبحانه، وجبريل، ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، ونزوله إلى زوجه (خديجة) بعدها وذهابهم إلى ابن عمها (ورقة بن نوفل)، فيخبرهم «أنَّ هذا هو الناموس الذي نزل على (موسى) عليه السلام، ويا ليتني كنتُ حيًّا لما تُرسل لقومك

ويخرجونك». فيسأله الرسول.. «أومُخرجيَّ هم؟»

فيجيبه (ورقة).. «ما أتى أحدٌ بمثل ما أتيت به إلا عُودي».

أقف بمنتصف الطريق وقد انخلع قلبي حزنًا عليه سيدي، كيف تلقّى هذه الكلمات؟!

ثم ها هو يسأل بتعجبِ الآمن، بين أهله الذين يُحبهم ويحبونه، وعشيرته الذين يأمنهم ويأمنونه: «أومُخرجيَّ هم؟!»

لطالما قلت في نفسي.. «كيف هان عليهم؟!»..

يومها ظللتُ أكررها في نفسي وأنا أبكي وحدي على الطريق..

حتى نسيتُ ما فيَّ.. حتى أيقنتُ أني أحبّ رسول الله، وتالله ما قرأتُ في سيرة رسول الله جملةً أشقّ على قلبي من سؤاله سيدي... «أومُخرجيَّ هم؟!»..

ها هُنا يهون الهَمّ جدًا، ونذكّر أنفسنا أنها دنيا، فبعض الآلام تسكُن إذا مرَّت عليها سيرة رسول الله.

حتى أنا أسأل نفس سؤالها.. «كيف هان عليهم أن يُخرجوا رسول الله؟!»

الآن أنتبه لأوّل مرة أن ذلك الغطاء الذي رأيته من قبل قد عاد إليهم، شيءٌ منير.. لا ليس منيرًا، لونه أبيض.. يشبه اللبن في نقائه، تسَّاقط منه قطرات على رؤوسهم وأجسادهم!.. وكأنَّ سحابةً تحوم فوقهم، هناك تحت السقف مباشرةً، تنزل عليهم ماؤها، تقع القطرات عليهم فتضيء موضع حلولها، ثُمَّ لا تزال تتحرَك على جسدهم كالماء الجاري إلى أن تصل للأرض من تحتهم، فتمتصها، ويظلّ أثر مرور كلّ قطرةٍ على أجسادهم من ورائها منيرًا باقيًا!

لعلّها الكلمات التي قيلت، أو المجلس، أو الغرفة؟! هذا الغطاء من هدوء.. رحمة، تتنزَّل عليهم، رأيتُها عندهم مرةً من قبل، بعدما ضاعت (سلمى)، والآن، هل هو شيءٌ خاص بالمرضى أم الإنسان؟!

لا أستطيع فهم هذا المكان!

في الجامعة كان كلُّ شيءٍ مفهومًا ومعلومًا، ماذا يفعلون، يعملون، يأكلون، يدرسون، يمزحون، كل شيء مُتوقّع في النهاية، أما هنا.. فأقدامٌ تضيء، وأرض تخفي بداخلها المياه، وأسقف تنزل عليهم خيالاتٍ من نور.. أو لبن.. أو مطر! لا

أدري.. لم أعد أدري أي شيء بعد الآن، هذا المكان سيصيبني بالجنون لا ريب!..

لا زالت الفتيات متأثرات، لكن واحدةً منهن ترتدي حجابًا أبيض تكوَّمَت في الزاوية ترتجف ثُمَّ صارت رجفتها بكاء، دموعها تنهمر على وجهها وملابسها، تجمَّعَت الفتيات حولها، كلٌّ يمسح على كتفها ويضمَّها، قالت بصوتٍ مُتهدّجٍ وصدرٍ ينتفض بعد دقيقة:

- تعرفون المرأة التي كانت من (أسيوط)، وظلَّت هنا ترافق زوجها طول النهار وفي المساء كانت تختبيء أسفل سلم المعمل لتبيت هناك لأنه ممنوع أن تبيت في عَنبَرِ الرجال.. تذكرونها؟

- أجابت الواحدة تلو الأخرى.. «نعم.. نعم، كنتُ أمرُّ عليها لأعطيها وجبةً زيادة لتأكلها»، «وأنا كنتُ أحضر لها دواء السُكّر فقد كادت تدخل في غيبوبة من يومين»، «مسكينة.. لم تكن ترتاح بالنهار أبدًا، زوجها عظامه توجعه وهي تدلّكه طوال الوقت حتى يتخدّر جسدها من الألم».

زادت العبرات على وجه ذات الحجاب الأبيض وأكملت:

- اليوم مات زوجها!

سكتوا جميعًا، فتابعت:

- وعائلته الذين لم نرهم من قبل ولم يهتموا به ولو مرةً طوال مدة مرض الرجل ظهروا فجأة وصار له أهل!

وبمجرّد أن أتوا وقبل أن يتم نقل زوجها للمشرحة.. طردوها!

شهق الجميع فزعًا واستنكارًا وشفقةً...

- رفضت زوجته الخروج من الغرفة وتركه، فقامت أُمُّه إليها وأمسكتها من رأسها تجذبها من حجابها للخارج حتى أنه تمزَّق وظهر شعرها وجزءٌ من جسدها وهي تجُرّها على الأرضِ جرًّا، ظلَّت تتوسّل إليهم أن يسمحوا لها بالبقاء، وهم باقون على موقفهم منها، كانت تجرُّها جرًا وهي تصرخ بها:

«كما أخذتهِ منَّا رُغمًا عنَّا ليتزوجك.. اليوم سنأخذه منكِ رغمًا عنكِ ولن تقتربي منه أبدًا!». حاولتُ التدخل ونجدتها من أيديهم، لكن أبوه وقف أمامي وصرخ بي.. «أمورعائلية؛ فما دخلك؟!».

ولَّما أصررتُ على تخليصها منهم؛ هددني أنِّي لو تحركت

خطـوةً واحـدة تجاههـم؛ فسـيقدّم فيَّ شـكوى لمديـر المشـفى ويـصرّ عـلى طـردي، وسـيحرص كل الحـرص أن لا تقبـل أي مشـفى آخـر تعييني.

مـا هـذا الـشر؟! ومـن لهـذه الفتـاة الآن؟! بقيـت وحدها أمامهم!.

سألتها ذات المعطف الأزرق:

- وماذا فعلتِ؟

كانـت الفتـاة تنظـر إلى الأرضِ وهـي تجيب على سـؤالهنَّ، كأنها تختبـيء منهـنَّ خجلًا:

- خفـتُ عـلى نفـسي، وخرجـتُ مـن الغرفـة دون أن ألتفـت إليهـم ثانيـةً.

- وباقي المرضى.. ألم يتكلّم أحد.. أيُّ أحد؟!.

فأجابت بأسىً:

- لم يتحرَّك شخص واحدٌ من مكانه!.

قالتهـا ورفَعَـت رأسـها إليهـم، عيونهـا بالدمـوع مـلأى وتسـأل بصـوتٍ مختنـق:

- أنـا لسـتُ مُخطئـةً.. أليـس كذلـك؟ لم أكـن لأسـتطيع التدخُّـل وإلا كنتُ سـأخسر كل شيء، ولم يكن يحق لي التدخل

أيضًا.. صحيح؟...

كلهنّ صامتات، أعينهن تحاصرها، تختلف النظرات بين استنكارٍ وشفقة، عتاب وتفهُّم، لوم ورحمة، هتفَت بهم وهي تعود بقدمها إلى الخلف في شيء من الكسر في ذاتها والفرار.. ليس منهم، بل من نفسها:

- صدقوني لم يكن في يدي شيءٌ لأفعله.. أرجوكم صدقوني!.

لم تجد منهن غير الصمت! لم يَجبُرها أحد، بدا الأمر قاسيًا عليها جدًّا؛ فعادت تتكوَّم في زاويةٍ من الغرفة في صمت!..

لماذا يُصدّر البشر الأحكام على بعضهم؟! ربما لو كنَّ مكانها لكان رد فعلهنَّ أسوأ منها، أو أفضل منها، لا أدري، فلستُ أعلم الغيب؛ فهذا لله وحده، لكن في جميع الأحوال ما كان لهن أن يتركنها لأفكارها الآن وهي تستجدي منهن كلمةً واحدة تهدئها، ربما هي أخطأت، أو لم تخطيء، لكن في انهيارها الآن دليل على علمها في داخلها أنها مُخطئة، وهذا آية الإيمان، القلب هو مصدر الصدق الوحيد.

كان مشهدها وهي تخفي وجهها بيدها حتى لا ترى

أحـدًا يثـير الحزن فيَّ، وأعتقد أن لا يشـكك أحدهـم في محنتك، مشـقتك، ويؤمـن أنك تتـألم، ويثق أن المشـكلة التـي تقف على صـدرك الآن هـي من أشـد الأمـور فتـكًا لعزيمتك...

«أن تـُرزَق مـن يُـصَـدقـكَ»

أعتقـد أن هـذا أقـصى مـا قـد يتمنـاه الإنسـان مـن أخيـه الإنسـان في هـذه الحيـاة.. لينجـو بنفسـه عـلى الأقـل دون أن يتشـظى!..

عـلى بـاب الغرفـة وقف فتـىً يبـدو في الثانيـة عشر من عمـره تقريبًـا، فجسـده لا يدل عـلى أكثر من ذلـك، وجهه مُلطَّـح بلـونٍ أسـود ويده وقدمـه، يلهث من شـدة اختناق الهـواء بصـدره، يشـير لهـم بيـده ويسـعل بـين كل كلمـةٍ وأخـرى، في النهايـة أدركـوا أن والديـه خـارج المشـفى أصيبـا في حريـقٍ وهـو لم يجـد أحـدًا يـرضى بالقـدوم معـه وجلبهـما!..

قامـت ذات المعطـف الأزرق إليـه بسرعـة، تبعتهـا التـي ترتـدي نظارة، وأحسـبهم لمـا أدركوا أنه حـافيَ القـدَم.. حينها جذبتنـي واحـدة منهـما وقالت:

- ارتدي هذا حتى لا تُجرَح قدمك.

فألقـاني عـلى الأرض بسرعة ولم يتكلَّف عناء سـكون قدمه فيَّ، أدخـل فقـط جـزءًا مـن قدمـه، ثُـمَّ ضغـط عـليَّ و"كَعَبَني" ليسـير بي كنعـلٍ، وكانـت قدمـه أصغر مـن كلِّ من سـبقه؛ فلم ينتبه لوجود المسـمار.. تَـــبًّا!..

***

خرجنـا من بوابة المشـفى فبدَت الشـمس كأروع ما يكون، الجـو دافيء بهـا، أجـدُ في تجـدد طلـوعِ الشـمس شيءٌ يُشـعِل حماسـتي، شروق الشـمس.. هـذه الصناعـة الربانيـة المُذهِلـة، والتـي اعتادهـا الكـون بـكل مـا فيـه، كـذا عينـي، كنـتُ انظر إليهـا، هـي ذاتهـا كل يـوم، ومع ذلـك أظـل أراقبهـا وأنتظرها كل صبـاح، حتى تأتي مرة.. تُعوِّض كل المرات التي لم أسـتمتع بهـا أو فاتنـي ظهورها، أقـف في انتظارهـا؛ فأراهـا كأنما تصعد مـن باطـن الأرض، تزحـف رويـدًا رويـدًا، ونورهـا يُصبِّـح عـلى الأرضِ رويدًا رويدًا، تشـقُّ السـماء حتى تصـل لأعلاها، ويتنـزّل ضوؤهـا عـلى كل شيء، فيكـون شروقهـا فيَّ أكثـر من شروقهـا في السـماء، وكأن الله أرسـلها لي وحـدي!..

- نمشي وراء طفل؟!

قالها ممرضٌ طويل يمسك كرسيًا متحركًا ويعبر به الطريق، والممرضة ذات المعطف تتبعه بكرسيٍ آخر، وكلاهما يتبعان الفتى الذي ينتعلني، وأثق أنه سمع الرجل في جملته التهكمية لكنه لم يلتفت له!

لم نكد نعبر الطريق أمام المشفى حتى وجدنا شقًّا جانبيًا بين عمارتين، وفيه يرقد شخصان على الأرض ورائحة احتراق جلديهما تفوح في المكان، ولا زال الدخان يتصاعد منهما، أسرع الثلاثة إليهما، فأزاحت الممرضة الفتى وهي تهتف :

- أنت طفل، ابتعد، لا تعطلنا.

كانا موضوعين على ملاءتين، فرفع الممرض الملاءة التي تحوي الرجل ووضعه بحرصٍ على الكرسي المتحرك، ثُمَّ رفع المرأة بعده ووضعها على الكرسي الآخر، وبسرعةٍ عبرا الطريق عائدين إلى المشفى، كان الفتى يمضي خلفهما في صمت، لا دموع تسقط منه، لا تأثر في مشيته، ولا فورة في دمه، فقط يسير من ورائهما بنفس سرعة سيرهما، دخلوا إلى المشفى جميعًا، واتجهوا إلى غرفة الكشف، أخذ الطبيب الرجل المصاب أولًا، كشفوا عليه، كانت إصابته تحتاج

لعنايةٍ خاصة ووضع بعض المطهرات والأربطة عليه، طلب الطبيب أن يتم نقله لعنبر الجروح والتعامل مع إصابته، بعدها وُضعت المرأة المصابة على السرير، كانت ملابسها قد التصقت بجلدها في أكثر من مكان في رجلها، حاول الطبيب التعامل مع حروقها لكن تعذَّر عليه، فأمر بتجهيزها للدخول إلى غرفة العمليات.

نادت امرأة على الفتى وسلَّمته ورقتين، ويجب عليه كتابة البيانات المطلوبة فيهما، ونبَّهته أنَّ أمه سيتم تجهيزها للعمليات خلال ساعة، وعليه أن يدفع سبعمائة جنيهٍ في الحسابات لأجلها، وإحضار وصلٍ ووضعه مع ورقة أمه، وإلا لن يتم السماح لها بإجراء العملية، انتهت من كلماتها ثُمَّ نظرَت إليه بشيء من الاحتقار وقالت:

- ما فائدة كل هذا الشرح لك وأنت لن تستوعب حتى نصفه؟! أحضر شخصًا كبيرًا لأعيد عليه كل هذا مرة ثانية!.

تركت له الأوراق وذهبَت، التفت الفتى ينظر للمكان الذي كانت أمه راقدة به؛ لكن الممرضة ذات المعطف أوقفته قبل أن يعبر للغرفة وقالت:

- لا داعي لدخولك، سنأخذها ونصعد بها للدور العلوي لتجهيزها إلى أن تحضر شخصًا كبيرًا ليتعامل مع إجراءات المشفى.

قالت ما عندها ثمَّ ذهبت كذلك في طريقها، وقف من خلفها يتلفَّت يمينًا ويسارًا، وكأنه لمح شيئًا يبتغيه؛ فاتجه إليه، وقف في طابورٍ طويلٍ ينتظر أن يصل إليه دوره، مضى الوقت ثقيلًا، وحركة الأقدام بطيئة، لا زالت حركة الفتى ثابتة، لا شيء يخلخله أو يقلقه، كأنما صنع من جماد، أخيرًا أتى دورنا أمام النافذة لنسأل فأخرج الفتى ورقةً من جيبه مطوية، فتحها وأمسكها بيمينه، وفي يساره الأوراق المطلوب منه ملؤها، قال للموظف خلف النافذة الصغيرة وهو ينظر للورقة التي بين يديه ويقرأ منها:

- عمي أرسلني أسأل عن إجراء هذه العملية كم سيتكلف وهل يمكن التقسيط؟

مدّ يده بالورقة التي تخص أمه وفيها بياناتها وسلمها للموظف، فأجابه الأخير:

- المبلغ سبعمائة جنيهٍ، ولا إمكانية للتقسيط ويجب دفع المال في خلال ساعة وقبل أن نغلق كشف الحسابات.

مـدّ الفتـى حينهـا الورقـة الخاصـة بأبيـه للموظـف ورفع الورقـة التـي في يـده اليمنـى ثانيـة أمـام وجهـه وقـرأ منها:

- هـل سـتحتاج الحالـة التـي في هـذه الورقـة إلى دفـع المـال؟

قرأهـا وأنـزل الورقـة مـن أمـام وجهـه، نظـر لـه الموظف بشـكٍ، فقـال الفتى:

- لم أقصـد مضايقتـك، عمـي الـذي يسـأل وهـو رجـلٌ كثـير الأسـئلة وليـس أنـا.

- ما اسمك؟

- رضا.

قذف الورقة الخاصة بأبيه تجاهه وهتف:

- هـذه الحالـة نعالجهـا مجانًـا، والآن هيـا اذهـب مـن هنـا، كفـاك تضييـع وقت، وراءك أنـاس كبار أهم منـك.. هيا اذهب!.

تلقَّـف (رضـا) الورقـة منـه الخاصـة بأبيـه، وبحـث عـن كـرسيّ فـارغ ليجلـس عليه وبدأ في مـلأ البيانـات، وقف أمامه شـاب وقال:

- مـا فائدة جلوسـك أيها الصغـير؟! هيا قم مـن هنا، دع الكـرسي لشـخص آخر يسـتفيد منه.

قام من مكانه وجلس على الأرض، لم يلتفت خلفه لينظر الذي جلس من بعده، وقد كان هو الشاب الذي صرفه، لكن الفتى لم يهتم بالأمر، رفع ركبته وضمَّها إلى صدره وأسند عليها الأوراق، وضع بجانبه الورقة التي كان قد أخرجها من جيبه وقرأ منها على الموظف، كانت فارغة!

ما الذي كان يقرؤه إذن؟! ولماذا فعل هذه الخدعة وأوهَم الموظف أن هناك أسئلة بين يديه؟! لا يعجبني هذا الفتى!..

انتهى سريعًا من بيانات والده، قام من مكانه واتجه للغرفة التي حجزوه فيها وقدَّم لهم الورقة التي ملأها، استلمتها منه الممرضة وقالت له..

-الآن اذهب وأحضر الشخص الذي سيبيت مع والدك هذه الليلة.

فقال (رضا) سريعًا:

- أنا سأبيت معه.
- وأُمَّك؟

سكت رضا ثوانٍ ثُمَّ قال:

- أختي ستفعل.

نظرَت له بازدراء وسألته:

- ماذا ستفعل مع والدك وأنت صغير لا يمكنك أن تراعي أحدًا؟!

فأجابها وقد تخلخل صوته:

- أختي ستأتي لتبيت مع أمي وأنا أخاف جدًا من الظلام ولن أبيت وحدي في المنزل، أرتعب والله يا أبلة، أرجوكِ اسمحي لي بالمبيت معه.

حرَّكت كتفيها له بلا مبالاة وذهبت في طريقها..لا يعجبني هذا الفتى على الإطلاق!..

وقف (رضا) بجانب سرير والده وهم يغيّرون له على حروقه، وكل دقيقتين يصرخ الطبيب بإحدى الممرضات لتخرج الفتى من الغرفة لأنه مؤكد لن يحتمل رؤية حروق والده، ثُمَّ ينظر إليه بتهكّم:

- انتبه، لو شعرت أنك ستتقيء بسبب الرائحة والمنظر.. عليك أن تفعلها بالخارج بعيدًا عني تمامًا، فهمت ؟ .

حرَّك (رضا) رأسه له دلالة الفهم، ظلَّ واقفًا يرافق والده حتى انتهى الطبيب من العمل على والده، بعدها سار خلف سرير والده وهم يحرّكونه في اتجاه إحدى الغرف، ظلّ يرافقه حتى وصل إلى العنبَر الخاص بالرجال في قسم

الحـروق، كانـت تحيـط بـكل سريـر سـتارةٌ تخفـي مـن ورائهـا مريضًـا، وكان هذا الأمـر مختلفًا عن كل الغرف السـابقة، فكل مـا رأيـتُ من غرفٍ كانـت دون سـتائر، أتت الأصـوات عاليةً مـن خلفها، يبـدو أن الغرفـة ممتلئة، أدخل المُمـرض السرير إلى الغرفـة وفي طريـق خروجـه سـأله الفتـى وهو يمسـك ذراعه:

- عمي كان يسأل لماذا أبي نائم؟

- لأنه أخذ مُسكنًا يساعده على النوم ويهدئ آلامه.

- كم المدة التي سيظل فيها نائمًا؟.

نظـر الممـرض لـه بتململٍ مـن أسـئلته؛ فـأسرع الفتـى بالتفسـير:

- عمـي يسـأل حتـى يعرف متـى يحـضر ليرافقـه ويبيت معه .

- سـاعتين عـلى الأكثـر ويصحـو.. ويا ليتـك تخبر عمك أننـا لا نحـب وجـود الأطفـال هنـا لأنهـم مزعجين، لـذا عليه أن يـأتي وحده!.

بعدهـا انـصرف مـن أمـام (رضـا) دون إضافـة المزيـد مـن الكلـمات، دخـل الفتـى لغرفـة أبيـه، مَـرَّ عـلى غطائـه ولفَّـه عليـه جيـدًا، اقـترب مـن وجهـه، مدّ يَـدَهُ حيـث أنفه، ظـلّ دقيقـة يتتبع أنفاسـه عـلى مـا أعتقـد، وكأنَّه يتأكـد أنَّـه لا زال على قيـد الحياة.. ثُـمَّ أعـاد يـده إلى جانبـه في صمـتٍ وخـرج دون أيُّ تأثـر!..

لا زال هذا الفتى لا يعجبني!!!..

بدأ يسير ويسير.. حتى خرج من المشفى تمامًا، عَبَرَ الطريق إلى الشق الذي كان يرقد فيه والديه من قبل، دخله ومضى فيه قليلًا، ثُمَّ وفي غرفة صغيرة من مدخلٍ أسفل بيت.. فتح الباب، دخل.. كانت الرائحة في الداخل أسوأ مما كانت عليه في الشِق من قبل، لم يلتفت الفتى لشيء إلا أنه ذهب لنافذةٍ صغيرة وفتحها لتفرَّ منها الرائحة فرارًا موليًا كأنما هي المختنقة من المكان، وليس المكان هو المخنوق بها!..

كان في الأركان آثار زيتٍ في الأرض وعلى الحائط، ولون أسود يغطي أغلب الحوائط، وأعلى الموقد كان متفحمًا تمامًا، ولا يوجد أيُّ أثرٍ لأخته التي أخبرعنها الممرضة.

لكن.. ما هذا؟!! لماذا تضيء الأرض هنا تحت أقدام الفتى؟!

هل كانت تضيء من قبل؟ لا أتذكر!

لكنها الآن تضيء، ونحن خارج المشفى، ولا يوجد بجانبنا أي مريض!

لماذا إذن تضيء خطوات الفتى؟! ما الذي يفعله أكثر من كلّ الذين سبقوه؟!

سـار الفتـى حتى وصل إلى سريـرٍ في زاوية، رفـع الملاءات التي وُضِعَـت عليـه، من تحتهـا كانت قطع الخشـب مرصوصـة؛ فرفعها كذلـك، أسـفلها كانت هنـاك دراجـة ذات لون أحمر وأبيـض، أنيقة ونظيفـة، تنظر إليها فتشـعر أن وجودها شـاذًا في هذا المـكان! حملها (رضـا) وخـرج بها، وقبـل أن يغادر.. فتـح حقيبة كانـت موضوعة عـلى السرير وأخـرج منها بعـض الملابس، حجـاب، عبـاءة، تلفّت خلفـه ينظـر إلى شيء، مـدّ يـده وأخـذ مقصًا ثُـمَّ عاد للعبـاءة فقصّ مـن طرفهـا جـزءًا، ثـم جمعهـم بحقيبـة،، وجـد زجاجـة صغيرة في الحقيبـة، فتحهـا وشـمَّها، وضـع منها قطـرةً صغيرة عـلى الدراجة، ثُـمَّ خرج مـن الغرفـة، كان يسـير بخطـواتٍ ثقيلة، يحمـل الدراجة عـلى كتفـه ولا يسـير بها عـلى الأرض، لا أفهـم حماقته هـذه! لماذا لا يسـير بجانبهـا أو يركبها؟!

هذا الفتى!...

كلُّ شيءٍ معـه يسـير بسرعة، لم يتوقف دقيقـة، لم ينظر خلفه مـرة، لم يتأثـر بـأي شيء، والآن يتصرّف بغرابـة، والأعجب أن قدمه تضيء!

طـال الطريـق جدًا، الأتربـة بكل مكان، والأصـوات كلها منفّـرة، ووجـوه النـاس أجمعهم حَزَانـى، يمـضي الواحد منهم

أمـام الآخـر فـلا يسـلّمان لكـن شـيئًا داخلهـما يتلاقـى، فقـط نظـرات الجميـع تتعـارف فيـما بينهـا؛ فتعانـق بعضها، مـن أين صُـبَّ كل هـذا الهـم عـلى البـشر؟! وصـل الفتـى أمـام رجـلٍ يجلـس عند محـلٍ يُعلّـق فيـه العديـد مـن الدراجـات القديمة، وقـف الفتـى وقال:

- أيمكنني أن أخبرك شيئًا يا عم؟

نقـل الرجـل نظـره بـين الدراجـة و(رضـا)، ابتسـم لـه وأشـار برأسـه دلالـة الموافقـة، فقـال الفتـى:

- وأنـا صغـير كنـتُ أنظـر للسـماء وأعتقـد أن الطيـور تـأتي زيـارة لـلأرض كلّ صبـاح، وأنهـا تسـكن بالجنّـة، تبني أعشاشـها فـوق السـحاب.. عـلى الغيـوم! يومًـا مـا وكنـت في الرابعـة حينهـا بَنَـت حمامـة عشَّـها عـلى نافذتي التـي كنتُ أفتحهـا وأنـام جانبهـا، فاقتنعـتُ جـدًا أنهـا ظنتني سـحابة، فسـرتُ طـوال الـيوم على أطـراف أصـابعي، شعرتُ أني خفيـف كريشـة.. أتحـدّث بلطـف، أضحك بهـدوء، أغضب في صمـت، أحببـتُ أن لا أخيّـب أملهـا فيَّ؛ أن أبقـى كـما ظنتنـي.. «سـحابة»؛ بـل صرت أُحـبُّ الطائـرات لأجلهـا، وأحلـم أن أكـون طيـارًا يومًـا ما،

مضت الأيام يا عمّ، رحلت الحمامة، كبرتُ وتوقفتُ عن التفكير الطفوليّ في كل شيء أخيرًا، وصرتُ لما أنظر للسماء وأرى الطير..

أقول سبحان ربي! ولا أفكّر في شيءٍ آخر، بعدها اشتري لي أبي هذه الدراجة، وهي أجمل دراجة قد تقع عليها عيناك، انظر إلى ألوانها وعجلاتها، رائحتها، اقترب هنا يا عمّ وشمَّها.. حتى هذا مختلف أي دراجة قد تكون رأيتها من قبل، أتعلَم لماذا يا عم؟!

لأن أبي اشتراها من ماله الذي سهر ليالٍ ليأخذه، والمال الحلال يشبه المسك؛ يطهّر كلّ ما يلمسه ويظل فيه لا يزول.

العجيب أن الرجل انحنى بالفعل ليشمّ الدراجة، وبدا أنه وجد الرائحة التي وصفها (رضا)؛ فظهر التأثر واضحًا جدًا على وجهه، سأله الفتى بجدّية:

- أتعلَم ماذا حدث بالأمسِ يا عمّ؟

حرَّك الرجل رأسه نافيًا، وقد بدأ الاهتمام والحماسة على وجهه يتولّدان شيئًا فشيئًا، فجلس الفتى على الأرض في تأثرٍ واضحٍ، أدركتُ حينها أنه كان يمهد كل هذا ليخبره عن حادثة والديه، قال (رضا):

- بالأمس يا عمّ وقفت حمامة على نافذتي وبنت عشها، واليوم وافق أبي أن ألتحق بثانويةٍ عسكرية لأحقق حلمي أن أكون قائدًا طيَّارًا.

سأله الرجل باهتمام:

- طيَّارعن طريق الثانوية العسكرية؟! ما عمرك يا بني؟!

- أربعة عشر عامًا يا عمّ، وأرجوك لا تتنمَّر عليَّ أنتَ أيضًا لأن وجهي أملَس، وقصدتُ في الجيش، أريد أن أكون طيَّارًا في الجيش، هذا هو حلمي.

حينها كانت الدموع قد بدأت تنزل بالفعل من عينيّ الفتى، فضمَّه الرجل إلى صدره وقال:

- كم دفع والدك فيها؟

- ألف جنيه، وهذه فاتورة شرائها، وكان هذا من عامين، لكنه سيرضى بنفس المبلغ الآن.

- لا أملك إلا ثمانمائة الآن، وأنا لا أحب إبقاء ديون عليّ .

- حسنًا يا عم، مبارك عليك، والآن أخبرني.. أين أجدُ مكانًا يبيع مجسمات طائرات صغيرة؟.

لمعَـت عينـا الرجل وهو يرى حلـم الفتى يبـدأ الآن أمامه، أشـار لـه على طريـق حيث يمكنـه أن يجد المكان الـذي يرجوه، فانطلـق الفتـى بعد أن قبـض المال وتـرك الدراجـة وراءه، لماذا لم يخـبره عمَّا حـدث لوالديه بـدلًا من كل هـذا الكذب؟!

لـو كان والـد هـذا الفتـى يعلـم ما سـيفعل ابنـه وكيف يتـصرَّف، لـكان تخلّـص منـه صغـيرًا!! لكـن مـا كان للآباء أن يتخـذوا الأبنـاء عـلى هواهـم، وإنـما ينعـم بهـم الله عـلى من يشـاء من خلقـهِ إنعامًا، للأسـف حزيـنٌ أنا عليـه، كنتُ أظنني سـأحزن منـه لكن.. شيءٌ فيَّ يُشـفِق عليـه، أريدُ عتابه لكـن رحمتـي بـه أكـبر.. فـلا أحـد يوجهـه ويصحـح دربه، وحيـدٌ هـو، يحتـاج إلى والديـه، وكلاهمـا يحتاجـاه، لا أدري مـن أيـن تنبـع عاطفـةٌ كالأمومـة؟ سـمعتُ أنهـا فطـرةٌ في الأمهـات، وجِبلـةٌ خُلِقـن عليهـا، فلماذا أجـدُني الآن في هذه الحيرة؟!

أريـد ضَـمَّ هـذا الفتـى إليَّ، أسـتبقيني معـه حتـى أُصاحبه ما أسـتطيع، ولا أتركه فينشـغل فكـري به، لكنه عـلى كل حال لا يسـمعني؛ فـلا أقدر عـلى منعه عن كل مـا يُقدِم عليـه بتهور، حـيرة مـن فوقها حـيرة، وعجزٌ لا يجـبره شيء!

وصلنا أمام المشفى، أشعر بقدمه تهدأ قليلًا، مرَّ إلى الداخل ووقف أمام نافذة الحسابات، نظر له الموظف وقال بتعجبٍ :

- أنت من جديد!.

فمدّ (رضا) يده سريعًا إليه وبها المال والورقة التي تحوي بيانات أُمَّه، استلمها الموظف وسأله بطريقةٍ هجومية:

- سرقت مَن؟!

فأجابه (رضا) وهو يهز كتفيه بلا مبالاة وعينٍ ناعسة وصوتٍ ساخر:

- عمي قادمٌ بعد ساعة وسيخبرك هو من الذي سرقتُه، الآن أعطني الوصل لأسلمه لهم في العمليات لأن مباراة الكرة ستبدأ على التلفاز بعد قليل وأنا أريد حجز مقعدٍ قريب من الشاشة!.

- من سيلعب؟!

- مصر والسنغال، وأنا أُشجع السنغال!.

ظهر الاستنكار والغيظ على وجه الموظف لكنه تابع عمله، سلّم الوصل إلى (رضا) وهو يشيح بوجهه في عدم اهتمام:

- هيا اذهب من هنا، فمن سيستمع لطفل أحمق مثلك ؟ ! .

في خطواتٍ كسولاتٍ.. مضى من أمامه، يدٌ في جيبهِ والأخرى تحمل كيسًا صغيرًا به بعض الملابس، ما إن اختفى من أمام موظف الحسابات حتى جرى سريعًا لقسم العمليات، كانت أُمّه جاهزةً ومحجوزة داخل القسم؛ فلم يستطع الدخول لها، أخذوا منه الوصل وسألوه عن المرافق لها بعد العملية؛ فأتى صوته متأكدًا أن أخته ستحضر على الموعد.

الفتى صامتٌ، ساكت، يحيرني فيه الكثير، وصل إلى غرفة والده فدخلها، لا زال الرجل نائمًا، خرج ثانيةً حتى وصل لغرفة التمريض، سألهم:

- لماذا أبي لا يزال نائمًا؟!.

وجاءت إجابتهم أنَّهم أعطوه جرعةً منومةً أخرى ستجعله ينام حتى الصباح، فشكرهم ومضى.

أخذ الحقيبة التي كان أحضرها ودخل إلى الحمام، أمام المرآة وقف يغسل وجهه، ويده وقدمه، ثُمَّ بدأ بخلعِ ملابسه واحدًا وراء آخر، فتح الحقيبة وأخرج ما فيها وارتداها

قطعـةً قطعـةً، ولمـا انتهـى منهـا جميعًـا، لملـم مـا خلـع ووضعه في حقيبتـه التـي معـه، بخطـواتٍ هادئـات خـرج مـن الحمام، يسـير بتـؤدةٍ، وينظر إلى الأرض، ولا يرفع عينـه إلى أحد، أخيرًا وصـل إلى بـاب غرفة العمليـات، وقف بمكانـه منتظرًا خروج أُمّـه، قدمـه ثابتة، دماؤه لا تفـور، حزنه لا يثـور، لا زال يحيرني وخطواتـه تـزداد إضـاءةً مرةً بعـد مرة، ومِشـيةً بعد مشـية!...

مضـت السـاعة وسـتبقى أُمّـه نائمـة للصبـاح، يحرّكـون سريرهـا جميعًـا، (رضا) يسـير مـن خلفهـم، قدمه تـضيء أكثر وأكثـر، وخطـاه لا زالـت على هدوئهـا، على باب غرفة النسـاء في قسـم الحـروق كانـت اللافتـة مُعلَّقة..

«ممنوع الدخول لغير الإناث»..

عـبرت الممرضـات وسـمحن لـه بالدخـول مـع أُمّـه، كل الأسِرَّة حولـه سـتائر، وقف (رضـا) بجانب سريرهـا، التفتت لـه الممرضة:

- حالتهـا تحتاج مراقبـةً طـوال الليل، لـو ارتفعت درجة حرارتهـا يجـب إبـلاغ قسـم التمريض فـورًا.

أشـار لها برأسـه مؤكدًا عـلى فهمها، غـادرت الممرضة وبقـي هـو مـن ورائهـا، نظـر إليهـا، رفـع يـده ليضعهـا

عليهـا؛ لكـن وقبـل أن تصـل إليهـا تـردد؛ فـلا شيء فيهـا يمكنه إمسـاكه، الشـاش يلفّ كلّ شيء، فانهار جالسًـا على الأرض بجانـب سريرهـا، عـاد برأسـه إلى الخلـف؛ فمالت عـلى عمود السريـر، فاتكأ عـلى باقي العمود بجسـده، نظر لنفسـه مـرةً أخيرة..

العبـاءة التـي يرتديهـا تغطـي جسـده كلّـه، والحجـاب عـلى رأسـه ثابـتٌ لم يسـقط، والرجولـة داخلـه أبـدًا لـن تمـوت، هُنالِـك أغمـض عينيـه ليهـدأ قليـلًا، وبقيـت قدمـه بداخـلي مضيئـةً دونـما حـراك، ولأول مـرّة أشـعر بدمعـه وهـو يسـقط مـن فوقـي.. حارقًـا سـاخنًا صادقًـا.

***

عـلى عَتَبَـةِ غرفـة العمليات وقـف (رضـا)، لا زال يتخفى في زيّ النسـاء، تلفَّـت حولـه، كل الأماكـن مشـغولةٌ والنـاس فـوق الكـراسي وتحتها!

بجانـب البـاب لـوحُ زجـاج، نقـيّ، يُشـبه النهـر.. تنظـر فيـه فـكأنَّ وجهـك يطفـو على صفحـة المـاء، أو يحلِّـق في أعالي السـماء، اقـترب الفتى مـن اللوح وجلـس عـلى الأرضِ أمامه، ضـمَّ ركبتيـه إلى صـدره، وعقـد يديـه مـن حولهـما، ونظـر إلى المـرآة، وجهـه بيضـاوي، ولونـه خمـريّ، وعينـه.. بنيَّـة، فمـه دقيـق، وفي جبهتـه أثـر جـرحٍ قديم، عـلى رأسـه كان الحجاب لا يـزال باقيًـا، وعلى جسـده العبـاءة، وفي صـدره حقيقته، وفي قدمـه.. أنا!..

ومـن بـين كل الأمـور الجامحة التي قـد يفعلها شـابٌ حينما ينظـر لمـرآةٍ.. لم يجـد (رضـا) غـير الصمـت ليفعلـه، وإطالـة النظـر إلى وجهـه، لكنّـي وحـدي الـذي كنـتُ أرى يـده وهي تتحـرك كلُّ دقيقـة من مكانها إلى جـزء منه، ترتعـد قدمه؛ فيمدّ يـده إليهـا، يمسـكها، ويثبّتهـا، يرتجـف كتفـه الأيـسر؛ فيرفـع يـده اليمنـى إليه ويمسـح عليـه ويذكر اسـم الله، تحاربـه عينه؛ فيـكاد الدمـع يسَّـاقط منها، يضـم يـده إلى وجهه ويخفـي عينه

وراءهما، يهمس لنفسه.. «لا، تماسك».

أودُّ لو أخبره أن لا يفعل، أن يترك نفسه للحدث ولا يحارب شدته ويكتمها، أودُّ لو أخبره أن بإمكانه الانهيار؛ بل من حقه، لكن يعزُّ عليَّ أن أهزم قوته، وأطفيء جمر عزته، وأقول له «استسلم، فعلها غيرك كثيرون».

الآن امتدت يده حتى وصلَت إلى قلبه، ينتفض، أشعر به، الدماء تمرّ بجسده كلّه على فزعٍ، منذ أن نادوه ليدخلوا أُمَّه إلى العمليات للمرة الثانية وهو يهيئ قلبه للفقد، يؤهله للوحدة، ويستسلم لدور التمثيل الذي أتقنه بمهارةٍ حتى الآن!..

كُلَّما فُتِحَ الباب المُوصِل لغرفة العمليات.. اعتدل في جلسته ومدّ يده للحقيبة التي بجانبه، والتي تحمل حاجيات أُمَّه، يتأهب لندائهم له، ليدخل إليها، ويعين على إفاقتها من تخدير العملية، لكن في كل مرة يخيب رجاؤه، هذه المرة كان واثقًا أنهم سينادونه لكن قالت الممرضة:

«حالة (إبراهيم إسماعيل) تجهز، حالة (إبراهيم إسماعيل) تجهز».

كان يجلِس على أول مقعدٍ في الطريق بعد السلم، كدتُ أقفز من قدم (رضا) إليه، لأسلم عليه وأسأل عن (إسماعيل)، لكن

سبقت إليَّ يد الله القادرة عليَّ فأخرستني، تتبعته، لا زال بمكانه، الممرضة تنادي اسمه، وهو على مقعده لا يرد، كأنما نسي أنه هو (إبراهيم بن إسماعيل)،على بُعد خطواتٍ منه كان (إسماعيل) ينظر إلى أبيه، وعند نداء الممرضة للمرة الثالثة، قام يتمشى بهدوءٍ ثُمَّ وقف أمام والده وهتف:

- الحاج (إبراهيم)! كيف حالك أيها الحبيب؟ ماذا تفعل هنا؟.

رفع (إبراهيم) وجهه إليه كأنَّما يُرتّب الكلمات الهاربة من رأسه ويحاول جمعها على شفتيه، نادت الممرضة للمرة الرابعة، هُنالِك رد (إسماعيل) من فوره:

- نعم.. هنا، هيا يا حاج ينادون عليك، هيا.

قام (إبراهيم) يمشي معه مدهوشًا، يسأله..

-لماذا ينادون عليَّ؟ هل فعلتُ شيئًا خاطئًا؟!.

ابتسم له ابنه وقال مازحًا:

- مبارك يا حاج.. ستتزوج!.

ضحك (إبراهيم) بشدة عليه وهو يهمس له:

- لا تقل هذا، وحاول أن لا تسمعك زوجتي وإلا ستعلّقك من قدمك، فأنا عندي أجمل زوجة بالدنيا، وأرقّ طفلٍ بالعالم.

سكتا بعدما وصلا إلى باب غرفة العمليات، قال (إبراهيم) بحزنٍ:

- ابني لم يعد يأتي ليراني، أتعرف لماذا لم يعد يأتي؟!

فأجابه (إسماعيل) سريعًا:

- لكن ابنك كان هنا الآن يا حاج، وأنت أرسلته ليحضر لك فرخةً مشويةً لأنك تحبها، ألا تذكر؟!.

بدا أن (إبراهيم) يحاول حقًا التذكّر؛ لكن لا أمل، نظر لوجه (إسماعيل) الذي يمتلأ لطفًا، فقال بتعجبٍ:

- ابني كان هنا حقًا، يا ربي! لقد ظلمته!.

كان حزينًا جدًا في افتقاده، صادقًا لأبعد الحدود، خائفًا من الوحدة، فقال بثقةٍ:

- نعم، نعم، كان هنا، بالطبع كان هنا، وهل ينسى الآباء الأبناء؟!

ولو رأيتَه لأحببتَه، أخبرني.. ما اسمك يا ولدي؟ وهل أعرفك؟.

كانت الممرضة أمامهما تتعجل خطوات (إبراهيم)، فسكت ابنه عن الرد عليه، ووقف معه، وقبل أن يعبر أبوه من الباب، فتح (إسماعيل) ذراعه ليعانقه، لكن أباه نظر له بتعجبٍ ومسح على

كتفه مبتسمًا ومشى!..

عند الباب لوحٌ من زجاج، يحفَظ مرآةً من صمتٍ ووهَن، وداخل المرآة فتاة، وأمام المرآة فتىً، بجانبهم تكوَّم (إسماعيل) أرضًا على يمين اللوح، ثُمَّ لم يعد يملك إسكات دمعه بعد الآن.

***

هل تختبر الحياة الناس أم الناس يختبرون بعضهم؟! وما الذي يزيد في الدنيا صعوبتها؟ الناس الذين يحيون فيها، أم هكذا خلقها الله؟!

صعبةٌ.. لا تحلو لأحد إلى الأبد، ولا يدوم لها حالُ!..

فُتِحَ الباب من جديد وخرج منه كُرسيٌّ مُتحرّك يدفعه ممرضٌ، تحرَّك ووقف بجانب مِقعد تجلس عليه العجوز الأولى، أول من انتعلني، كانت (سلمى) على الكرسي ساكتةً، وبجانبها وقف (حسن)، ولو أن الله يقدّر لي الهتاف وأن يكون صوتي مسموعًا.. لصرختُ بهما بكل قوتي..

«أيناكِ يا سلمى، أيناكِ؟!»

سألهم الممرض:

- نتحرَّك إلى الغرفة؟

لكـن العجـوز وجـدت أن (سـلمى) تحـرّك رأسـها نافيةً، ثُـمَّ ألحّـت عليهـا بالمكوث:

- مـن الأمـس وبعدمـا أخـذوني مـن غرفتـي وأتـوا بي إلى قسـم الجراحـة وأنـا أشـعر بالاختنـاق، رائحـة المُخـدِر والمطهـرات وسـوائل التعقيـم والتنظيـف تمـلأ أنفـي، أرجوك لنتوقـف هنـا قليـلًا، أمـام نافـذة، بعيـدًا عـن الغـرف المغلقة.

ربت (حسـن) عـلى كتفهـا مُطمئنًا لهـا، جذب كرسـيها في هـدوءٍ وتوجّـه بـه إلى إحـدى الزوايا البعيـدة والتي فيهـا نافذةٌ بَحرِيَّـة، يدخـل منهـا الهـواء بِحرِّيـة، ثبَّت كرسيّ (سـلمى) في مكانـه وأحـضر له كرسـيًا ووضعـه بجانبهـا وجلس..

مـن مكانهـا ظلَّت العجـوز تنظـر إليهم، مـن خلفها ربتت امـرأة سـمراء طويلة على كتفهـا وقالت:

- حمدًا لله على سلامة بنتكم، ربنا يشفيها ويعافيها.

شكرتها العجوز لكن وضّحَت لها:

- دعواتـك لهـا، فنحـن لا نعـرف مـا بهـا، بالأمـسِ أجـرت المنظـار ولم يكتشـفوا سرّ ألم معدتهـا، وبعدمـا خرجت بسـاعتين ارتفعت حرارتهـا فعـادوا وأخذوهـا ليحجزوها هنا

حتى يفهموا السبب، واليوم أخرجوها لأنَّ حرارتها عادت لطبيعتها ولا شيء آخر عندهم ليقدموه لها، ولا إجابة يستطيعون تقديمها لي أنا.

نظرت المرأة السمراء الطويلة إليها بشفقةٍ وعيونها تحمل نظرة تفهمٍ، وقالت:

- المهم أنها اليوم بخير، لا ألم في معدتها، ولا عمليات ستجريها، ولا خوف يملأ صدرك عليها، اليوم فقط، اسعدي باليوم واتركي الغد وقلقه وفحوصاته وعملياته لحين مجيئه.

أعجبني ما قالت المرأة الطويلة، فكأنّها جمعَت حسنات الحاضر وذكّرت العجوز بها، وفرّقَت قلق المستقبل وأخفته عن عيونها.

أعتقد أن لا بأس باغتنام المرء ما بين يديه، وتجاهل ما دون ذلك، ليس عيبًا أن يبحث الإنسان عن السعادة، ويهرب من كل ما يُنغّص عليه حضورها.

التفتت العجوز للمرأة وقالت وهي تشير إلى (سلمى):

- ليتني أستطيع، لكن التي هناك هذه هي قلبي الذي خرج من صدري، وكل ألمها يضرب فيَّ هنا....

قالتها وهي تخبط صدرها بيدها مرارًا، بدأت دموعها

تنـزل وهـي تكمل:

- لستُ أمًا صالحة كما ستظنين، فأنا فعلتُ شيئًا سيئًا جدًا.

بـدأ صوت نحيبها يعلـو، وكتفها يهتـز، وصدرها ينتفض، اقتربـت منهـا المـرأة السـمراء واحتضنـت كتفهـا بـين ذراعيها وحاولـت إسـكاتها، لكن العجـوز أكملت:

- كل الأمهـات يدعـون بخـروج أبنائهـن إليهن من المحنـة والألم، إلا أنـا، ففـي يـوم وبعدمـا صليـتُ الفجر، وكانـت يـا حبـة قلبـي راقـدةً عـلى الأرض تضع رأسـها عـلى قدمـي وتحاول النـوم، فنظـرتُ لهـا، رقيقـة وهادئة، لا تعلـم شـيئًا عـن مشـقة الحياة وظلمهـا، أنا عالمهـا كله، وأخوتهـا لا يشـعرون بهـا، كنتُ أعلـم أنني لو مـتُّ؛ فلن يـرضى أحـد برعايتهـا، فرفعتُ يـدي إلى الله وقلـتُ.. «يا رب اجعـل يـوم رحيـل سـلمي قبل يومـي، فأنـا أحتمل الوحـدة والعيـش مـن غيرهـا، أمـا هـي فلـن تحتمـل وسـتموت وحيـدةً لا أحـد معهـا، فيا رب خذهـا قبل أن تأخـذني ثُـم ألحقنـي بها».

انتهـت مـن جملتهـا وزاد البكاء الـذي في صدرهـا وعينها، قالـت لها المرأة السـمراء مواسـية:

- تجلدين نفسك بسبب هذا؟! وهل ربنا لا يعلم ما بصدرك وسبب دعائك ليقبل مثل هذا؟!.

لكن العجوز رفعت رأسها لها وهتفت:

- أنتِ لا تفهمين شيئًا، بعدها بشهور قليلة أتى عريس لها، رآها وأحبها، مع أنها كفيفة لكنه رضيَ بها، كان يتيمًا فجعلها كلَّ حياته، ثُمّ احتاج إخوتها المال فلم أجد إلا أن أبيع شقتي وأوزّع المال بينهم، وقررتُ أن أسكن إيجارًا، فأصرَّ زوجها أن آتي لأقيم معهم، وأحببت الأمر لأبقى قريبةً منها، كان زوجها (حسن) طوال عمره يتمنى أن يعيش وسط أسرة؛ فرحب بي في بيته، وعاملني كأمه، وكانت أسعد الأيام حتى بدأ الألم يأتي (سلمى) كل يومٍ دون توقف، وقال لنا أكثر من طبيب أن ألمها لا تفسير له ولا سبب، عندها تذكرتُ دعائي الذي دعوت من سنوات، وعلمتُ أنني السبب، دعوت الله أن تموت قبلي، وها هو يخبرني أنه قَبِلَ الدعاء!..

كنتُ أعلم أن دعاء الأمهات يُقبَل، لكن التفكير هكذا سيؤذي العجوز ويُهلِك قلبها، فالأمهات وحدهنَّ من أعطى الله لهن قلوبًا فوق قلوبهن، وحفظها في بطونهن، وربط بينها

وبين قلبها الذي في صدرها، حتى إذا ما خرج الطفل منهم من بطنها، كان قلبها الذي في صدره متصلٌ بها، تشعر به، وتحسّ بوجعه وهمّه، أنينه وغمّه، وهذا للأمهات وحدهن دون الآباء، كما خلقهن الله ربهن، لذا من العجيب ظنّها أنَّ الله لم يطلع على خبيئة نفسها يوم الدعاء وأنه سبحانه يعلم خوفها على (سلمى) من البقاء وحدها.

عجيبٌ أن تظنَّ أن الله لا يدري سرَّها!..

***

توقفت أقدامٌ قريبة من الزجاج الذي كان بجانب الباب، الحذاء أنيق جدًا، أذكر هذه الأقدام، وهذا النعل، وتلك المشية، أنها الفتاة التي تنقل الأخبار للصحافة!

كانت تقف أمام (رضا) بشيءٍ من الريبة والشك، والفتى لا زال يصمت حاكيًا عن نفسه بين نفسه، تنقل نظرها بين يديه وقدمه ووجهه، رأيتُ فيها جرأةً أن تقف بتلك الطريقة وتنظر دون حياءٍ أو خوف أن يمنعها أحد، بدأ (رضا) ينتبه لقربها الشديد منه، واهتمامها به، سألته:

- ما اسمك؟

تنحنح وهو يرقق صوته ويقول:

- (رضا)

ولا بأس، فالاسم يصلح للجنسين، فسألته:

- مَن الذي ترافقينه هنا؟.

فأشار لغرفة العمليات وقال:

- أمي.

- ووالدكِ؟

- إنه محجوز بغرفته ونائم.

فعادت للتقصِّي:

- من الذي ترافقينه؟ وما سبب الإصابة؟ هل أنتِ السبب؟!

كان الفتى في حالة شبه إعياء بسبب قلة النوم مع عدم الغذاء، مع كل هذا الفزع الذي بداخله، والوحدة التي تحيط به، نظر لها بتوترٍ، فاقتربت منه وقد ظهرت على وجهها أمارات الفوز، وكأنما وجدت فريستها هذه المرة، وصارت على يقين أنّ وراء (رضا) خبرًا حصريًا.

قام الفتى من مكانه وقلقه منها يزداد، اتجه إلى الحمام ومعه حقيبة الملابس، شيءٌ ما يحدث لي، كأن فيَّ فورة وثورة

وغضب وألم، أودُّ لو أمنعها، أخاف... لأول مرة أشعر بالخوف، وليس على نفسي، بل على إنسان!..

دخل إلى الحمام، وهو مختلط، فدخلت وراءه، اقتربت منه، وسألته:

- ما الذي تخفينه يا فتاة؟! أخبريني ولن أبلغ عنكِ.. هيا.

حاول (رضا) التماسك والسكوت وعدم الرد، التفّ مبتعدًا عنها؛ فجذبته من الحجاب الذي على رأسه، ولّما كان الفتى غير متمرسٍ في ارتدائه؛ فقد انفلتت ربطته سريعًا وسقط من عليه، وقف كلاهما ينظران لبعض، هي نظرتها تزداد جشعًا وسعادة، ونظرة (رضا) تزدا حزنًا ومهانة، اقتربت منه في خطوات ثابتات مختالات، وبدأ هو بالعودة إلى الخلف في خطوات متخلخلات، حتى أنه خلعني من قدمه دون أن يشعر، قالت الفتاة ضاحكة:

- والآن ستخبرني ما هو السر وراء تنكرك كفتاة وإلا...

حينها دخل من الباب (إسماعيل)، نقل نظره بين الاثنين وكان عدم الفهم سيد الموقف تمامًا، سألته الفتاة بغضب:

- ماذا تريد أيها الأحمق؟!

فظهرت على وجه (إسماعيل) ابتسامة فهم، أو لعله على الأقل قد أدرك أن الشرير في هذا المشهد هو الفتاة الأنيقة؛ فالتفت إلى (رضا) وقال بثبات:

- ينادون عليك، أمك خرجت.

نظرت له الفتاة وهتفت بقسوة:

- لا تتحرك من مكانك، لم ينته الكلام بيننا.

فاقترب منها (إسماعيل) وقال بحدة:

- بل انتهى.

أسرع (رضا) بأخذ الحجاب من الأرض ولفّه حول رأسه وضبط هيئته وخرج ملهوفًا إلى أُمّه، دون أن ينتعلني، تَبًّا!..

الله أرجو أن لا ينساني (إسماعيل) كذلك داخل هذا الحمام!

صرخَت الفتاة به:

- ما دخلك أنت؟ شكله يؤكد أنه مجرم، وإلا ما كان تنكر في هيئة فتاة.

فأجابها وهو يحرّك كتفه بلا مبالاة:

- لا أدري سببه، ولن أسأله.

- لماذا تدافع عنه؟
- لستُ أدافع عنه، بل أقف ضدك، فرق كبير بينهما.
- لماذا تقف ضدي؟
- لأنك قاسيةٌ، لم يهمك جلوسه وانتظاره بالخارج أمام غرفة العمليات، واستمريتِ في إزعاجك له، ولا أعلم سبب اهتمامك هذا به، لكن أمه حينما تخرج من العمليات يجب أن تراه هو أمامها أول ما ترى، ولن أسمح لك بحرمان الفتى أو أمه من ذلك.

كان يهتف بكلماته الأخيرة في حدَّة وتأثر، وحده يعرف أهمية وجود الابن أمام والديه عند ضعفهما، ووحده كذلك يعرف كيف يعوز الابن ويحتاج والديه وقت ضعفه، هو فقط الذي يمكنه أن يشرح ما يفعله الغياب بالأشخاص، حتى لو كانوا حاضرين، يكفي أنهم يتلفتون بحثًا عنك وأنت واقفٌ أمامهم، ثُمَّ لا يجدونك، لأنهم لا يعرفونك، لتغيب معهم كل الحياة، هذا ما أراه في عين (إسماعيل)، وهذا ما ينهمر منها الآن دون توقف!

نظرَت الفتاة الأنيقة إليه باحتقار واتجهت إلى الباب لتخرج، لكن (إسماعيل)، وقف أمامها وقد لمعت عيناه

بمهمةٍ وتجهمت ملامحه:

- لن تخرجي حتى أعرف سبب اهتمامك بهذا الفتى؟.

دفعته بيدها بعيدًا عن الباب، فتحرَّك من أمامه، خرج وصار ظاهرًا أمام كل من يمر في هذا الممر من المشفى، أعلى صوته وهو يسأل:

- ماذا أردتِ من هذا الفتى؟.

انتبهت الفتاة لما يفعله (إسماعيل)، وأنه يحاول إثارة المشاكل ولفت الانتباه إليها، طلبت منه أن يتركها تذهب وينتهي الأمر، لكنه ظلَّ واقفًا أمامها يعيد سؤاله، وكلُّ مرةٍ يعلو صوته أكثر من المرة التي قبلها، سألته بغضبٍ:

- لماذا تفعل هذا؟ الفتى.. وتركته، ماذا تريد مني بعد؟

- مَن يتجاسر على مسكين مرة، يتجاسر ألف مرة.

سألته بتهكّمٍ:

- ومن أين عرفت أنه مسكين؟!

أجابها بثبات:

- لأن المساكين يعرفون بعضهم!.

سكتت الفتاة، لم تستطع إضافة رد عليه، رفع (إسماعيل) عينه إليها وقال:

- لا، لا أريد شفقتك، فاحتفظي بها لنفسك، أريد إنسانيتك، أيًا كان ما تفعلينه أو ما تريدينه من هذا الفتى.. توقفي عنه، لا تكوني أنتِ والدنيا على مسكين!.

أجابته الفتاة وقد انطفأت نظرة الحرب في عينيها:

- لم يعد هناك مساكين في الدنيا كما تظن.

عاد خطوة إلى الخلف وهو يرد عليها:

- بل المساكين في كل مكان، أنتِ فقط التي لا تريدين الاعتراف بوجودهم.

- لا أدري أين أنظر لأجدهم!.

- وما حاجتهم إليك لتجدينهم! يكفيهم أن الله يدري.

قال جملته ومضى...

يا ويلتاه، حتى أنت يا (إسماعيل) نسيتني؟!

وقبل أن يختفي آخر أثر من جسده، ارتد (إسماعيل) ثانيةً إلى الحمام ومرّ من جانب الفتاة، دخل حتى وصل إليَّ.. ثُمَّ رفعني عن الأرض وأخذني معه وغادر.

***

وقف (إسماعيل) على بعد خطوات يتلفَّت يمينًا

وشمالًا، رأى (رضا) يقف في زاويةٍ ما ينتظر، اقترب منه وبحركةٍ خفيفةٍ من يدهِ على كتفهِ التفت إليه، قال بثباتٍ لكن بصوتٍ خفي:

- لم أفعل شيئًا خاطئًا.

فسأله (إسماعيل):

- لماذا تتبعك تلك الفتاة إذن؟!

- لا أدري.

سكت (إسماعيل) قليلًا وهو ينظر إلى (رضا) الذي لم يتحرك أو يتاثر بمراقبة الشاب له، سأله:

- كم عمرك؟

- أربعة عشر عامًا.

- أين شاربك؟

- وجهي بطبيعته أملس، فهل ستحاسبني على ذلك؟!

- من المصاب عندكم؟

- أبي وأمي في حريق.

- وأين كنت؟

- خارج البيت.

- ومن الذي تسبب في الحريق؟

نظر له (رضا) بريبةٍ وسأل بضيق:

- مـن؟! ليـس مـن.. بـل مـا، مـا السـبب في الحريـق؟ إن كنـت سـتتهمني كتلـك المجنونـة بالحـمام؛ فوفّـر عـلى نفسـك الجهـد، فأنـا كنـت في المدرسـة حينهـا.

تنهّد (إسماعيل) بقلق وسأله:

- مَن الذي اكتشف الحريق؟

هنالـك سـكت (رضـا) والتمعَـت عينـاه، أشـاح بوجهـه ليخفـي هـذا التفلَّـت مـن ضعـف، تنحنـح لحظـات ثُـمَّ أجـاب:

- أنا، أنا من اكتشفهم.

عـاد للسـكوت، رفـع يـده إلى عينيـه فمسـح مـاءً متجمّدًا فيهـما، قـال بتوجـعٍ مكتوم:

- عـدتُ آخـر اليـوم ووضعـتُ يـدي عـلى البـاب.. كان سـاخنًا، فتحتُـه سريعًـا، فوجدتهـما ملقيـان عـلى الأرض، والنـار تـأكل الموقـد والحائـط وملابسـهما، كانـت أمـي أقرب للموقـد منـه، لـذا إصابتهـا أشـد.

باهتمامٍ سأل (إسماعيل):

- ألم يشعر بكم أحدٌ من الجيران؟.

- لا، بيتنا مدفون بين عمارتين، مدخله يكاد يكون تحت الأرض تقريبًا، والنافذة كانت مغلقةً، لذا لم تستطع الرائحة أن تخرج، ولا والداي أن يصرخا.

سأل (إسماعيل) بحنوٍ:

- وماذا فعلتَ أنت؟

بدا أن (رضا) يتألم من الذكرى، قال بصوتٍ يختنق من البكاء:

- لما دخلتُ أطفأت النار ببعض الملابس المبللة، ثُمَّ أحضرتُ ملاءتين ووضعتهما، أخرجتهما واحدًا تلو الآخر بعيدًا عن البيت، لأن أية مساعدة لن تستطيع أبدًا الوصول إلى البيت.

رفع حينها (رضا) جزءًا من حجابه الذي يخفي حقيقته، ومسح دموعه التي يمسكها؛ حتى لا تفر منه إلى مُحدثه!

سأله (إسماعيل) سؤاله الأخير:

- من أين أحضرت المال لإجراء العملية؟.

رفع (رضا) رأسه باعتداد وأجابه:

- مالنا الخاص، لا نأخذ أبدًا مال الحرام.

لمعَت عينا (إسماعيل) وهو ينظر إلى (رضا)، فتًى بثياب فتاة، رجلٌ شَبَّ قبل أوانه، وحملٌ كالجبال، فقال:

- عظيمٌ أنت يا رجل!.

أنار وجه (رضا) من كلمته، أضاف (إسماعيل):

- لولا أنك ترتدي ملابس الفتيات لكنتُ عانقتك وسرنا معًا، لو كان والداك هنا وعلِما ما فعلت؛ لامتلأ كلاهما فخرًا بك.

عادت الحياة لوجه (رضا) وهو يسمع كلمات (إسماعيل)، ثُمَّ قال الأخير:

- من اليوم لا تحمل همَّ أي شيء، فأنا معك...

أتى صوتٌ عالٍ من بعيد يسأل عن مرافق (أم رضا)، فاستأذن الفتى سريعًا ليذهب إليهم

ويستقبل أمه، سلَّم عليه (إسماعيل) بعدما تعاهدا على الصُحبة.

***

مرّت دقائق حتى عاد (إسماعيل) جالسًا أمام المرآة التي كانت بجوار باب غرفة العمليات، وضع يده على وجهه، يهمس بصوتٍ خفيض إلى نفسه.. «سيتذكرني، سيأتي يوم ويتذكرني، سيفعل بإذن الله»..

ظلّ يردد «سيفعل، سيفعل، سيفعل....» .

وفجأة قال.. «وماذا لو لم يفعل؟!».

حينها أغمض عينه ولفّ يده حول جسده كأنما أصابته رجفة برد، أعلمُ جيدًا أن البرد هناك في منتصف قلبه، فبمَ سيفيده دفء العالم كله الآن؟!

من حولي الأرض كلها تضيء، خطوات البعض كأنما تحلِّق فوق السحاب، والبعض كأنما يمشون في باطن الأرض من ظلامها، لا زلتُ أحاول فهم هذه

الخطـوات، في آخـر الممـر كان ثلاثتهـم قادمـين، رجـلان وامـرأة، الرجـلان كأنـما يجـرّان المـرأة جـرًّا، خطاهمـا تـضيء ضـوءًا خافتًـا، يـزداد كلـما اقتربـا، أمـا المـرأة فخطواتهـا تزداد ظلامًـا!..

اقتربـا حتـى وقفـا بمـكانٍ ليـس ببعيـد، ثلاثتهـم أمـام العجـوز، رفعَـت رأسـها إليهـم، كان الأمـل يولـد عـلى وجههـا مـن جديـد، فـلا شيء أحـب لـلأم مـن أن تـرى صغارهـا قـد اجتمعـوا عـلى قلـبٍ واحـد، مهـما بـدر منهـم.. تعفـو، وتأمـل وتنتظـر، قـال رجـلٌ مـن أولادهـا بتوسـلٍ:

- أرجـوكِ سـامحيها، اغفـري كلماتهـا، ليـس لنـا غـيرك وليـس لـك غيرنـا.

مـن نظـرة ابنتهـا وظـلام خطواتهـا وسـواد وجههـا.. يُعـرَف أنهـا جـاءت مُكرَهـة، ولعـلّ أخوتهـا مـن أحضروهـا، وهكـذا الباطـل يبـدأ كعاصفـةٍ وكلّـما اجتمـع

عليه الناس وأيدوه ازداد وتبجّح ودمّر كل شيء، ولما ينفضوا عنه وينصرفوا من حوله يعود ريحًا ضعيفةً لا تملك أن تحرك ريشة..

نظرَت لهم العجوز بشيءٍ من العتاب وكثير من الرضا، قالت بحنوٍ:

- لا أفعل ما أفعل لأنتظر شيئًا منكم، أنتم منّي، أنتم أحبتي، أنتم كل ما أتمناه من الدنيا.

قالت ابنتها بخجل:

- الحقيقة أني لمّا فكرتُ مع نفسي، أحسستُ أني ظلمتكِ، لكن أرجوكِ تفهمي موقفي، كنّا صغارًا.. فكيف لنا أن ندري كل هذه الأفعال منكِ ومن والدنا دون أن تخبرينا؟.

مدت العجوز يدها إلى وجه ابنتها، جذبتها إليها وقالت بحنوٍ صادق:

- لا عليكِ، لا أحتاج منكِ هذا، يكفي أنَّ الله يدري،

كل مـا أحتاجـه أن ترحمـوا هـذه.

قالتهـا وهـي تشـير إلى (سـلمى) التـي لا زالـت تجلـس أمـام النافـذة وصـوت ضحكهـا مـع (حسـن) يتنقـل في المـكان، أكملـت العجـوز:

- هـذه لم تـرَ شـيئًا مـن حـلاوة الدنيـا التـي تعرفـون، لم تجرّبهـا، ولـن تسـتطيع أن تفعـل، أنتـم عالمهـا الوحيـد؛ فـلا تتركوهـا وحيـدة.

***

خـرج سريـرٌ مـن البـاب هـذه المـرة، وبجانبـه تخطـو القـدم التـي لم أرَ في مثـل ضوئهـا، كان (رضـا) لا يـزال في ملابسـه النسـائية، يرافـق سريـر أمـه الـذي كان مرتفعًـا ومائـلًا إلى الأمـام بكيفيـةٍ جعلتنـي أرى وجههـا، عيونهـا لا تـزال مغمضـةً، ويدهـا السـليمة بجانبهـا، فمـدّ (رضـا) يـدهُ ببـطءٍ وخـوف حتـى أمسـكها، الأصابـع عـلى الأصابـع، لعلّ أمـه أحسَّـت بـه؛ فقـد ضمَّـت أصابعـه كذلـك، ارتجفـت يـد

الفتى بمجرّد أن ضمّتها أمه، ظهرت الارتعادة وهي تصل حتى كتفه ومنها إلى وجهه؛ فاحمرَّ، فتحت أُمَّه عيونها لتنظر إليه....

فلـمَّا رأته همسَت همسًا خفيفًا.. «هذا ابني الذي ربيتُ!».

وشدَّت على يديه أكثر وأكثر؛ عندها اعتدل (رضا) في مشيته، ونصب قامته، ورفع رأسه، وكل الماء المالح الذي يصرخ في عينيه ليسيل منه ويفضح خوفه ووحدته وفقره، صار ماءً طيبًا عذبًا، يهبط حتى يصل لقلبه فيكون سُقيا رحمة لا سُقيا عذاب.

***

الآن الآن فهمتُ، بل تذكّرتُ جملةً سمعتُها يومًا..

«المُخلِصَ.. الذي يكتم حسناته كما يكتم سيئاته»

الآن عرفتُ لمن تضيء الأرض وتنير الخطوات، لكل من أخلص في فعله، زيارته، عيادته، مودَّته،

محبتـه، تضحيتـه، حتـى ضحكتـه، سـبحان الملـك.. جعـل للمخلصـين نـورًا يُعرفـون بـه!

في ركـنٍ بعيـد وقفـت طفلـةٌ صغـيرة تضحـك وتراقبنـي، تأخـذ خطواتهـا إليَّ تـارةً وتبتعـد تـارة، وأمامـي وقـف (إسـماعيل) يرجـو الرجـل الـذي يقـف حارسًـا عـلى بـاب غرفـة العمليـات أن يطلـب منـه طلبًـا، ظـلَّ يتوسّـل إليـه أن يسـمعه، والرجـل يرفـض حتـى مجـرّد الـكلام والوقـوف، أخـرج حينهـا (إسـماعيل) مـالًا وأقسـم لـه أنـه آخـر مـا يملـك، فقـط يحتـاج طلبًـا صغـيرًا، نظـر لـه الرجـل بشـكٍّ وسـأله عـن طلبـه، فقـال:

- أريد الدخول لأبي.

فأجابه الرجل:

-ممنوع.

ظهر الضيق على وجهه ثُمّ هتَف:

- حسـنًا، حسـنًا، لـن أدخـل، مـا رأيـك لـو أخرجتـم

أبي قبل أن يفيق تمامًا؟!

عادت نظرات الرجل تنزل على وجه (إسماعيل)، وهي أكثر شكًّا، فتنهد الأخير وتوسّله أن يفعل؛ فتركه الرجل وردَّ عليه ماله وتركه ودخل إلى غرفة العمليات وأغلق الباب، ظلّ ينادى عليه:

- والله لا أريد إلا احتضانه، فقط اشتقت لرائحته، أرجوك أخرجه وهو لم يفق بعد.. أرجوك!.

كل النداءات والتوسلات تلاشت في الهواء، عاد (إسماعيل) خاوي الأمل فارغ الفؤاد، جلس في مكانه، لو أنَّ الله خلق لي دموعًا لكنتُ بذلتها على هذا الشاب الآن، اقتربت الطفلة الصغيرة منِّي ويبدو أن لوني قد جذبها؛ فأحبَت أن تلعَب بي، وكأنّ هذا هو التدهور الطبيعي لتنقلاتي مؤخرًا!..

أتى من الخلف صوتٌ عالٍ.. أعرفه جيدًا هذا الصراخ، ظلّ الصوت يقترب ويقترب:

- قلتُ لك لا أريد أي شيء من الصندوق، فقط الحذاء.

- وما دمتَ ستعود لتأخذ الحذاء.. فلماذا تبرَّعت به من الأساس؟!

- لم أفعل، زميلي الغبي أراد أن يصنع بي خدعةً، فأمسك صندوق التبرعات وأخذ أفخم حذاءٍ في بيتي ووضعه فيه.

تنحنح الرجل الذي يرافقه وهو يسأله:

- اعذرني في سؤالي.. لكن ألا تستطيع شراء غيره؟!.

تنفس الشاب بغضب وهو يصرخ:

- لا يمكن، لأنَّ الغبي أخذ حذاء أبي، وليس حذائي، ويجب أن أعيده وإلا لن يغفر لي أبدًا.

إذن لم يتم التخلّص منّي؟! لم يحاولوا إبعادي أو طردي، كان فقط سوء تصرّف من شاب غنيٍّ أحمق!..

الفتاة الصغيرة لا تزال تقلّبني بين يديها يمينا

وشمالًا، والشاب يزداد صراخه مع أنه لو نظر تحت قدميه.. لرآني!..

ما هذا الشعور الغريب؟! شيء ما يؤثّر في بشدة! ما الذي يحدث؟!

هتفت الفتاة بين يدي بسعادة:

«انظري يا أمي ماذا وجدت؟!»..

قالتها وألقتني من يدها سريعًا وجرت حيث أُمّها لتريها المسمار الذي معها!

ماذا؟!... المسمار!..

الفتاة أخرجت منّي المسمار!..

أخيرًا فعلها أحدهم، الآن نلتُ حريتي.. الآن....

الأن أستطيع أن أُظلم الضوء من حولي قليلًا فلا يراني أحد، يمكنني أخيرًا أن أبتعد عن...

ما هذا الذي يجري لي؟!

اقترب الشاب الغنيّ منّي، لا أدري لماذا فعلتُ هذا..

لكنـي أظلمـتُ نفـسي وأخفيتهـا عنه!..

لمـاذا؟! لا أدري! لا أريـد الذهـاب معـه، لا أريـد الابتعاد عـن هنـا، بـدأت خطـوات الشـاب تبتعـد، ومعهـا يذهـب حلمـي في العـودة لعالمـي المثـالي، لكـن هنـا عـالمٌ إنسـاني، أكاد أقسـم أن الإنسـانية معنـى ينتقـل إلى الجـماد وقـد يغيـب عـن قلـب الإنسـان وجوارحـه، أكاد أصرخ أنَّ فيَّ إنسـانية، أريـد أن أبقـى لعـلّي أكـون نعـلًا لفتـىً رجـلًا كـ (رضـا) أو في قدمـي شـابٍ صابـر وبـارٍ كـ (إسـماعيل)، أريـد أن أبقى..

فُتِـحَ البـاب للمـرة الأخـيرة، وخـرج منـه كـرسيٌّ متحرك يجلـس عليـه (إبراهيـم)، فهـبَّ (إسـماعيل) مـن مكانـه وهـو يخفـي دمعـه سريعًـا، اسـتقبل والـده بابتسـامةٍ مُتزنـة، ومـد يـده ليسـلّم عليـه ويسـنده وقـال بـأدب:

- حمدا لله على سلامتك يا حاج!.

نظـر لـه والـده بتعجّـبٍ كالعـادة ثُـمَّ قـال بصـوتٍ ضعيـف:

- (إسماعيل) يا ولدي، اسندني على ذراعك يا حبيب!.

هنا سقط (إسماعيل) تحت قدميه ودموعه تسبقه إليه، يُقبّله ويعانقه ويضمّه ويشمّه ويهتف:

- بل أحملك.. ما رأيك؟

أحملك.. والله أحملك، أبي تعال؛ فأحملك!.

تمَّت بحمد الله

محبوبة محمد سلامة

لكنّ الله يدري

قال الربيع بن خيثم لأهله يومًا:

- اصنعوا لي خبيصًا، فصنعوه له، فدعا رجلًا به خبل فجعل الربيعُ يلقمه ولعاب الرجل يسيل، فلمَّا أكلَ وخرج، قال له أهله:

- تكلَّفنا وصنعنا ثُمَّ أطعمتَه، ما يدري هذا ما أكل!

فقال الربيع:

- لَكِنَّ الله يَدرِي

01012355714 - 01152806533
elbasheernashr@gmail.com
elbasheer.marketing@gmail.com
www.darelbasheer.net

9 789772 789955